قصص



سُفن قديمة

قصص قصيرة

إبراهيم عبد المجيد

المحتويات

تحت المظلة (٢٠٠٠)

الوقت ليل. من المؤكد أن هذا هو سبب خلو الشارع من الناس، إنه ينتظر المركبة الأخيرة، لن ينتظر طويلاً، عشر دقائق وإذا لم تصل سيستقل أول تاكسي، الوقت برد، هذا سبب آخر لاختفاء الناس. الناس يختفون كثيرًا هذه الأيام، الأسبوع الماضي استيقظ من نومه على صوت ضجة كبيرة، فتح باب الشقة فرأى عدداً من الجيران يحملون الأمتعة والأثاث يشاركهم عدد من الحمالين المحترفين، وينزل الجميع درج المنزل آخذين طريقهم إلى الشارع، أطل من الشرفة ليرى الشارع فرأى فيه عددًا كبيرًا من سيارات النقل تقف منتظرة في صف واحد طويل، والناس الذين يحملون الأمتعة والأثاث، من عدد كبير من البيوت، يضعونه، فوقها، ثم رأى أن عربات النقل تزداد مع تقدم النهار، وتقف أمام كل البيوت تقريبًا، وعشرات الرجال والنساء، كهولاً وشبابًا، يشاركهم الأطفال أيضًا، يحملون الأمتعة والأثاث، لقد وقف في الشرفة حتى انتصف النهار؛ ليتأكد من أن ذلك ليس

بالحلم، لم يذهب إلى عمله ذلك اليوم إلا بعد أن رأى النـــاس تبكي وهي تودع بعضها قبل أن تنطلق السيارات هادرة فـــي الشارع الواسع ثم ما تلبث أن تتفرق عند أول مفترق طـــرق وتتلاشى، لقد وصل إلى العمل مع موعد انصراف زملائـــه فلم يصعد إليهم، ومشى يتسكع في الشوارع شبه الخالية. لـــم يحدث زلزال ولم تقم حرب ولم تحتل البلاد دولـــة أخـــرى فلماذا يرحل الناس؟ وأين يذهبون؟

وانتظر أن يتحدث أحد من زملائه في ذلك فلم يحـــدث، لكنه لاحظ ازدياد الصمت، بل الوجـــوم، اضـــطر هـــو أن يحدثهم عما رأى أمس فهزوا أكتافهم غير مصدقين، ســـكتوا ولم يعلقوا بكلمة، ويومًا بعد يوم لاحظ أن عددًا من زملائـــه وزميلاته لم يعودوا يأتون إلى العمل، وحينما مر على مكاتب الإدارات الأخرى لاحظ التناقص الشديد في عدد المـــوظفين حتى صارت بعض المكاتب خالية لأول مرة لا يجلس خلفها أحد بعد أن كان المكتب الواحد يجلس إليه اثنـــان وثلاثـــة.. وظهرت أيضاً مقاعد كثيرة خالية بعد أن كـــان الموظفـــون يتسابقون في الحضور مبكرًا للفوز بمقعد.. كان الذي يفـــوز بمقعد يجلس فوقه ولا يتركه إلا آخر اليوم. كل ذلك لاحظـــه

في الأيام السابقة، من الطبيعي إذن أن يكون وحده الآن تحت المظلة في الليل في عز البرد.. لكنه لا يشعر بالبرد. الحقيقة أنه يشعر بالحر منذ لحظات والليل الأسود يتلاشى الآن شيئًا فشيئًا. النهار يأتي مبكرًا ست ساعات كاملة عن موعده، ساعته لا تزال عند الثانية عشرة، لكن الحرارة تشتد. لعلها الثانية عشرة ظهرًا لعله يقف بالنهار منذ البداية، وكل ما حدث هو أنه أغمض عينيه لبعض الوقت فبدا الأمر وكأنه بالليل، لقد كان الظلام في عينيه والبرد في قلبه، لقد كان خائفًا، والخائف لا يعرف الليل من النهار، دائمًا هو خارج الوقت، بالضبط مثل رجل مد قدمه ينزل من الرصيف إلى الشارع فنزل لكنه لم يجد الشارع ولم يستطع العودة إلى الرصيف، ظل معلقًا فوق الأرض بعيدًا عنها بشبر واحد، وينكمش ويقل حجمه، ولو كان يدري مصدر خوفه ربما حاول أن يتغلب عليه، والحقيقة أنه متجمد في مكانه، فالرجل الذي مر أمامه منذ قليل، ووقف على الرصيف الثاني يضحك ما لبث أن أخرج سكينًا من تحت ثيابه لمعت في الفضاء وهو يرفعها على مهل يقطع بها رقبته، انتحر أمام عينيه وانفصلت رأسه عن جسده، وتدحرجت إلى زقاق اختفت فيه،

بينما مشى جسده بلا عنق إلى زقاق آخر دخله على مهل، ولم يترك الحادث فوق الأرض نقطة دم واحدة، والمرأة الجميلة التي كانت تأتي من نهاية الشارع، وقفت على الرصيف المقابل، وخلعت ملابسها كاملة وراحت تشير إليه بيديها، فوجد نفسه يعبر الشارع متجهًا إليها مخدراً سكران، حتى إذا وقف أمامها وجدها الرجل الذي قطع بنفسه رقبته منذ قليل واقفًا يبتسم بخبث، فعاد مسرعًا إلى مكانه تحت المظلة وجسده كله ينتفض، ولم ينشله من الرعب غير المظاهرة الضاحكة التي مرت أمامه، مظاهرة كاملة من الأطفال العراة نظيفة أجسامهم، نبتت في ظهورهم أجنحة كيوبيد كأنهم خرجوا من صور رسامي عصر النهضة، لكنهم يرفعون لافتات صغيرة بيضاء مكتوب عليها بالأسود «أنقذوا الأيتام» بالعربية والإنجليزية، في الوقت الذي لا يتوقفون فيه عن الضحك.

واحد منهم ألقى إليه بلافتة فرفعها مشاركة لهم وتحية، وبعد أن مروا حملق في اللافتة فوجدها بيضاء. لكن ذلك لم يجعله ينسى أنه بالفعل يتيم؛ فلقد مات والده منذ زمن بعيد، ويعيش في الشقة وحده بلا زوجة أو ولد ، والآن يعيش

وحده في البيت كله، بل في الشارع، وغدًا سيكون وحده بالمدينة، وهو وحده الواقف الآن تحت المظلة، فهل سيكون وحده في سائر أنحاء البلاد؟ هل سيكون وحده في الوطن كله؟ لقد عادت مظاهرة الأطفال بعد أن وصلت إلى نهاية الشارع، وما كادت تقترب حتى امتلأ بالرعب من جديد وهو يراهم وقد تحولوا إلى كباش فرعونيه صغيرة، كباش تمشي على أربع مثل أي كباش، لها رأس الحمل الوديع، وجسم الأسد القوي، وصارت اللافتات الآن معلقة في أعناقها ولم يعودوا يضحكون بل يرى الدموع تترقرق نازلة من عيونهم وهم يمرون من أمامه لا يلتفتون إلى وجوده، حتى إذا وصلوا إلى الشارع البعيد المتعامد مع الشارع الذي يقف فيه، وجد المباني التي على ذلك الشارع قد اختفت، وظهر خلف الشارع ماء عريض أزرق وموج، والكباش تصعد سورًا منخفضًا يفصل بين الشارع والبحر، ثم تقفز في الماء، الواحد خلف الآخر، وتستغرق وقتًا طويلاً، ولا يعود أي منها للظهور حتى اختفت .لم تختف المياه ظل البحر المفاجئ في مكانه وارتفعت أمواجه لكن لا هواء يأتي يرطب الفضاء، هل يقف حقًا في القاهرة؟!. لا بد أنه سافر إلى الإسكندرية.

لكن هل كان ممكنًا أن ينسى؟ كيف إذن نشأ البحر الآن؟.
الإسكندرية. الإسكندرية. الإسكندرية. هل يبكي من أجل أن
تسمعه؟. هل تسمعه؟ إنه يمد يديه ليلحق بها وهي تمشي
أمامه فوقها غيوم بيضاء وتحرسها طيور جارحة تمنع
الغرباء من دخولها تقذفهم بحجارة من نار، ولم يعد الموج
يرتفع أمامه ولا يقذف بالماء، هدأ تمامًا وسكت كل شيء في
الفضاء لحظات قصار ثم إذا بصوت سنابك الخيل يرتفع
قادمًا من بعيد، سنابك قوية وضربات منتظمة سريعة، أي
خيل تلك التي تعدو بعيدًا وصوتها يقترب؟ لقد انشق الفضاء
في نهاية الشارع، عن حصان أبيض عالٍ، طويل السيقان
يأتي كالسهم يترك خلفه صوت ضربات سنابكه في الأسفلت
تملأ الهواء كما لو كان جيشًا كاملاً من الفرسان هو الذي
يتقدم عدواً، لقد أحدث مروقه في الهواء احتكاكًا يصم الأذن،
وطار حوله شرر، سببه الاحتكاك بجدران الهواء الخفية!
لعله هو نفسه حصان من نار لقد وصل إلى البحر فجأة.
وجده أمامه فجأة ؛لأنه توقف رافعًا قدميه الأماميتين صاهلاً
صهيل الرعب، لقد تطاير الشرر من تحت قدميه الخلفيتين
وهو يتشبث بهما في الأرض، لكن السرعة التي كان يجري

بها خذلته، انقلب في الماء وأحدث اصطدامه دويًا، وارتفعت المياه لأمتار، وسمعت أصوات الدوامات المائية وهي تأخذ الحصان وتغوص إلى الأعماق.. يا الله. عاد السكون وهذه المرة عاد كل شيء كما كان. المباني العالية على جانب الشارع عادت إلى مكانها وامتلأت شرفاتها بالزينات والأضواء والبنات والنساء الجميلات، صدحت الموسيقى فملأت الفضاء الذي بدا له قد امتلأ بعرائس من خيال ترقص في ثياب من أشعة قوس قزح، كانت كل النساء والفتيات في الشرفات يلوحن إليه بالمناديل الملونة كأنما يعرفنه جميعًا من قبل، ولم يعد الشارع خاليًا كما كان، بل لعله لم يكن خاليًا قط، لقد كانت ظنونًا ورؤى لا أكثر. أجل كل ما رأه الآن كان ظنونًا ورؤى .وإنه ليعرف من زمان أنه قريب من الجنون، فمجاذيب الشوارع دائمًا يتركون طريقهم وينحرفون إليه يصافحونه بلا سبب مفهوم، لعله كان معهم قبل أن يولدوا جميعًا، لعله عاش معهم حياة أزلية، وسيعود ليعيش معهم حياة أبدية، وغير هؤلاء المجانين فهو لا ينسى أنه كثيرًا ما كان يفتح شرفته ليجد فيها أسدًا قابعًا ينظر إليه، ولا يدخلها إلا بعد أن يغلقها، ثم يعود يفتحها من جديد، فيختفي

الأسد، هو إذن الذي يصنع مـــا يـــرى، ألا يصـــنع النســـاء الجميلات يعاشرهن في الخيال حين تعز النساء الحقيقيات في الأيام الأخيرة من الشهر؟ هو هو الذي يصنع ما يرى لكـــن يا إلهى ما الذي يلقي بالنساء والفتيـــات هكـــذا فجـــأة مـــن الشرفات والنوافذ، عشرات منهن يلقى بهن فجأة وفي وقـــت واحد ثم تغلق النوافذ والشرفات في لحظة واحدة، ليس هـــو الذي يصنع ما يرى فها هي عربات الأسعاف تأتي من نهاية الشارع صارخة أصواتها، ليس لها ســـارينة، بـــل صـــوت الجرس القديم .إنها عربات إسعاف قديمة مضى عليها نصف قرن أو يزيد، ذلك كان وقت الجرس! لكنها عربات إســـعاف حقيقية توقفت ونزل منها رجال في معاطف بيضاء وفـــوق وجوههم أقنعة واقعية من الغاز والتلوث، وراحوا يجمعـــون الجثث فوق المحفات وينقلونها داخل عربات الإسعاف، لقـــد ارتفعت في الهواء رائحة منفرة؛ إنها رائحه الجثث، ذلك مـــا جعل رجال الأسعاف يرتدون أقنعة الغاز، الجثث قديمة إذن، والنساء والفتيات لم يلقَ بهن الآن، بل منذ أيام ســـابقة، هـــو يقف منذ أكثر من يوم، لم يعد يذكر، لقـــد اختفـــت عربـــات الإسعاف وحملت معها جثثًا أخرى قديمة ظهرت ملقاة فـــي

الأركان، ورأى على الجدران آثار دخان وقذائف، إنـــه فـــي الحقيقة يقف في مدينة تعرضت للحرب وها هو طابور مـــن الجنود يأتي من نهاية الشارع، جنود يحملون بنادق طويلـــة وثيابهم ممزقة فوق أكتافهم وركبهم ويتقدمون فـــي صـــمت رءوسهم إلى الأرض مطرقين مثل أي جنود مهزومين لقـــد تأكد له الآن أنه يقف في ميدان حـــرب حقيقـــي، فـــالجنود يخرجون من أكثر الأزقة ينضمون للطابور الذي طال كثيرًا، ورأى أغلبهم حفاة، ربما لذلك لا يســـمع صـــوت أقـــدامهم، وعلى وجوههم غبار وتعب، لكن من هم هـــؤلاء الضـــباط الذين يحيطون بهم، هؤلاء الـــذي فـــي وجـــوههم شراســـة ويرتدون الزي النازي ويصرخون في الجنود بالألمانية، حتى انتظمت خطوات الجميع، وانـــتظم طـــابورهم، ثـــم راحـــوا ينشدون بلغة غير معروفة ، وبحـــروف مندغمـــة، وارتفـــع النشيد في الفضاء، ومعه رأى الضـــباط يبكـــون بينمـــا راح الجنود يضحكون.. بل وظهر طابور آخر قادم من الشـــارع المقابل، طابور المجندات يتقدمن ضاحكات، حتى إذا اقترب الطابوران من بعضهما ذاب الجنود في المجندات، وانفرد كل جندي بواحدة ، أسندها إلى الحائط وراح يضغط عليها، لقـــد

حطت فيهم العافية هم الذين كانوا متعبين منذ قليـــل، بينمـــا انسحب الضابط إلى الرصيف، وجلسوا مغمومين مســـتمرين في البكاء، لقد ضحك هو. أمسك بنفسه ضـــاحكًا لأول مـــرة تحت المظلة، لكن الضابط لم يعطوه الفرصة ليضحك أكثر، نهضوا كالمجانين، وسحبوا رشاشات صغيرة من أجنـــابهم، وراحوا يطلقون النار بغزارة على الجميع فانفجر الدم والفزع والصراخ الذي صار له لون أحمر أيضًـــا، الفضـــاء كلـــه صارت له ألوان، الشعر الأصفر للمجندات والعيون السوداء والزرقاء والخضراء والأجساد البيضـــاء والحمـــراء والـــدم الأسود والدم الأحمر،ودم غريب أزرق يمشي علـــى الأرض وأشعة الشمس البيضاء وأشعة الشمس الذهبية تجري بين كل الألوان فتقيم مهرجانًا غريبًا لا تنقصه غير الموسيقى التـــي سرعان ما أقبلت من الناحيتين أصوات لم تتضح بعد أصاخ لها الضباط السمع ثم ألقوا أسلحتهم وانسحبوا بعيـــدًا وعنـــد نهاية الشارع اختفوا ولم يعد هنـــاك جنـــود ولا مجنـــدات، وجرى الهواء في الشارع، والشمس أرسلت حزمـــة ضـــوء خاصة سكنت فيه، فصار بهاء كلـــه، والأصـــوات صـــارت تقترب من الناحيتين، لم تتضح بعد لكنها عريضه قوية، ولما

اقتربت صارت مثل الرعد، ورغم أنها بالعربية لم يفهمهـــا، لكن بدا له الجميع معذبين في جلابيبهم البيضاء؛ إذ يرفعـــون الكتب إلى أعلى مكان يصلونه بأذرعتهم، وفي المقابل فأولئك الذين كانوا في الجلابيب السوداء على وجوههم نفس العذاب ويرفعون كتبًا أخرى، الجلابيب البيضاء قصيرة والجلابيـــب السوداء سابغة، وخلف الرجال النساء يضربون الدفوف، وبدا أن الجانبين إذا التقيا سيصطدمان صدامًا مروعًا، لكن صوت طلقات رصاص ومدافع دوى في الفضاء فـــوق الـــرءوس، فجرى الفريقان كل منهما إلى الآخر، وتدخلا واختلطا، ثـــم بدءوا يهتفون هتافًا واحداً غير مفهـــوم أيضًـــا، ولا تـــزال أذرعتهم مرفوعة بالكتب المجلدة، فصار مـــن الصـــعب أن تميز أي كتب يحملها كل فريق، لكن صوت الرصـــاص لـــم ينقطع والذي حدث أن جميع الكتب طارت من أيديهم مرتفعة في الفضاء ، ترفرف صفحاتها في أصوات فـــرح عجيـــب، وهم يتابعونها في حسرة فهي لا تسقط أو تعود، بل تمضـــي صاعدة إلى الأعالي تاركة الحزن يشدهم إلى الأرض التـــي جلسوا عليها محبطين تلفهم الحسرات ثم انخرطوا في البكاء والنشيج، وتوقفت النساء عن ضرب الـــدفوف لكـــن صـــار

الجميع فجأة طيورًا ارتفعت محلقة في السماء تلحق بالكتب، طيور بيضاء وطيور سوداء تتداخل في الفضــاء وتصــنع تشكيلات سهمية سريعة تعرف هدفها ثم تختفي كما اختفــت الكتب من قبل ولا يبقى في الدنيا إلا هو تحت المظلة بالليل، الليل، لم يكن يقف بالنهار إذن، من أيــن أتــى كــل ذلــك الضوء؟. أيكون هو الذي أصيب بالعمى؟. لكنه يرى هيكــل نظارته، يالعجائب هذه الليلة، هذا النهار، هذا الــزمن الــذي أمضاه تحت المظلة، لماذا حقًا لا يفكر أن يتحرك من مكانه ينقذ نفسه، لكن هل يستطيع؟ من ذا يترك مكانًا كهــذا؟ لقــد أضاءت المصابيح على جانبي الشارع والمطر الخفيف الذي كثيرًا ما يظهر في هذا الوقت من العام بدأت ترسله الســحب تحت السماء لكنه سرعان ما صار ثقيلاً. هذا المطر يعــوق رغبته في ترك المظلة، توالت الزخــات متتابعــة وعنيفــة والشارع امتلأ بالمياه والأسطح راحت تطرد ما تجمع فوقها من الميازيب الطويلة لكن ما هذا الصوت؟ لــيس بصــوت رعود، إنه صوت كالطبل، صوت أجنحة ترفرف بقوة. إنها الطيور التي صعدت خلف الكتب منذ قليل تعــود مســرعة، الطيور البيضاء والطيور السوداء تهوي مرفوفــة بأجنحتهــا

بقوة وحين تقترب من الأرض يلمح خيوطًا من الـــدم علـــى أعناقها، إنها تسقط في الماء بلا حركة، تقفز مرة أو مـــرتين ثم تسكن والماء الجاري في الشارع لا يتوقف ويحملها إلـــى بعيد لكنها لم تعد فقط طيورًا بيضاء وطيورًا سوداء، صارت هناك طيور زرقاء ،وطيور حمراء ،وطيور رمادية، وطيور صفراء ،وطيور خضراء ،وطيور ذهبية، لقد صعدت الطيور السوداء والبيضاء وعادت بكل الطيور التـــي فـــي الفضـــاء والشتاء الغزير يحملها جميعًا إلى بعيد وهو كالطفل البـــاكي يريد أحدًا يحمله الآن إلى أي مكان فيـــه يمكـــن أن ينـــام، وها هو التاكسي الذي ينتظره منذ عشرات السنين يأتي وسط الماء على مهل! تاكسي أسود عريض قديم من أوائل صناعة شركة فورد يتخبط على الأرض وسط الماء، إنه يعرف هذا التاكسي جيدًا ويعرف سائقه، وخطر له أنه لا يعرف بالضبط عمره، لا يمكن أن يكون في الأربعين، لقد اقترب من المائة وإلا كيف يعرف هذا التاكسي ويعرف سائقه، ودون أن يشير إليه توقف أمامه، وتقدم وقبل أن يمد يده إلى البـــاب انفـــتح ودخل وجلس جوار السائق وتحرك التاكســـي فـــي صـــمت جليل. لم يتكلم السائق ولم يتكلم هو ولا نظر أحد إلى الآخر

بعد، ولما آن أوان النظر إلى السـائق، رأى وجهـه وجـه عجوز، وجه صبي، وجه قاتل محترف، وجه امرأة، وجـه طفل، وجه أسد، وجه كبش، وجه ضفدع، وجه أبيه، وجـه أمه، وجهه هو، أجل. كما لو كان ينظر في المرآه، ونظـر إلى المرآة التي أمامه ليرى المظلة التي صارت خلفه ويرى نفسه تحتها لا يزال واقفًا. لعله شخص أخر أخذ مكانـه، لا يشبهه إلا هذا السائق العجوز الذي يعرفه منذ زمن لم يعـد يذكره لكن الوجه مركب على عنق لا يتصل بجسد، والسيارة تمشي وحدها وخلف مقودها هذا الرأس المجزوز تتدلى مـن عنقه قطعة من المرئ والقصبه الهوائية، ولذهوله نظر إلـى نفسه فوجد جسمه بلا رأس، وهكذا كان عليـه ببسـاطة أن ينتقل من مقعده ليحتل مقعد السائق واصلا جسده الذي بـلا رأس بالرأس التي تشبهه بلا جسد ويمد يديـه إلـى مقـود السيارة يقودها بنفسه ويتأكد أنه قادر على قيادتها..

في مثل هذه الحالات ينفجر الإنسان بالبكاء مـن فـرط الفرح، حتى لو لم يكن يدري أن السيارة المتهالكة التي تمشي ببطء، في الحقيقة تمشي بإصرار، وتعرف طريقها إلى نهاية الشارع الذي ظهر فيه البحر من جديد...

رؤى البحر

(١)

انحسر الماء فارتفعت الرمال وملأت الفضاء آلاف الصخور المبعثرة صغيرة عند الشاطئ، كبيرة كلما اقتربت من خط الأفق، تحيط بها، وتنبت من قلبها، نباتات غريبة، وتزحف بينها وحولها، الأسماك عديدة الألوان والأشكال مصابة بكهرباء شيطانية، في الوقت الذي انتصبت فيه في أكثر من موضع ، أعمدة رومانية عليها نقوش ماحلة حروفها التي لم تعد بارزة، كما ظهرت من بعيد بقايا سفن قديمة سوداء أخشابها زلقة نمت فوقها الطحالب المائية.

لم يقف أي شخص على الشاطئ صارخًا، لم تنصب الدهشة خيمتها على وجه أحد، هو وحده الذي رأى.

المصطافون يجلسون تحت الشماسي، أمامهم، وتحت أرجلهم في الغالب، الأطفال يحفرون حفرًا صغيرة، يملئونها بالماء الذي ينقلونه إليها بالدلاء البلاستيكية، يدخل الأطفال إلى الماء فتجري خلفهم عيون الآباء والأمهات، والبحر

هادئ ينسطح ماؤه باتساع مريح للنظر، ويتحـرك حركـة مخملية عذبة، وفيه توزع الشباب والفتيات والصبية جماعات صغيرة، تلعب الكرة بسلاسة، أو تتسابق في السباحة وطول النفس.

فوق الجميع فضاء أبيض واسع، تصعد فيه الشمس قوية إلى منتصف السماء، فتزيد من اتساع الكون وبهائه والمـرأه الشابة الجميلة، التي ترتـدي الفسـتان الليمـوني الخفيـف الفضفاض، كثير الدانتيلا عند الذيل وحول الصـدر الواسـع والكمين القصيرين الواسعين، والتي تسرع حافيـة يسـبقها ويحيط بها الأطفال، قد ابتعدت الآن مع امتداد الشاطئ ناحية اليسار.

لقد قال لزوجته حين رأى المرأة تمر من أمامه:

- لا يزال الوقت مبكراً لضياع الاطفال.

لكن زوجته أخرجت من حقيبتها الملعقة علـى جانـب «الشيزلونج» التي تجلس فوقه، نظارتها السوداء.

الشمس ليست أمامها، الشمسية كبيرة والظل يحيط بهما، يعرف أنها تغالب الدموع، أحس بحاجة إلى النهـوض مـن

مكانه قليلاً، في الليلة الأولى لوصولهما منذ أسبوع، عضه الجوع في وقت متأخر، كان قد انشغل طويلاً مع زوجته في تنظيف الشقة المغلقة طول العام، نامت هي حين انتصف الليل، وظل هو كعادته لا يستطيع النوم حين يغير مكانه إلا بعد مضي ليلة وأحيانًا ليلتين في المكان الجديد..

لا بد أن المخبز الأفرنجي في الشارع القريب لا يزال موجودًا، قال لنفسه تلك الليلة وغادر الشقة بهدوء، لم يكن أحد في الشارع، وجد المخبز مغلقًا فمشى إلى مخبز آخر، لم يقابله أحد أيضًا، على غير العادة في ليالي الصيف، وعلى غير العادة أيضا هبت نسمة باردة للحظات، لماذا حين يشيع البرد يصبح الكون عميقًا؟ وسمع ضحكة صافية تأتي من إحدى الشقق العالية بصوت نسائي بديع وسمع صرخة تمر من حوله، ثم سمع هدير أقدام تجري، رآه خارجًا من زقاق ضيق ومظلم وخلفه الآخر يحمل سكينًا طويلاً يلمع في يده ثم سمع صرخة مكتومة ولاحظ أن الشارع كبير لا تضيء كل مصابيحه، انهار الأول فوق الأرض واندفع الآخر إلى زقاق جانبي استدار هو بلا خبز، تمدد جوار زوجته مرهقًا، ونام وعلى غير عادته، في مكان جديد.

(٢)

قبل أن ينهض من جوار زوجته تذكر أنه قرأ يومًا عن جزيرة في إحدى المحيطات تظهر ستة أشهر، ثم تغيب ستة أشهر، بكل ما فيها، ثم تعود للظهور.

لقد حاول – لا يدري لماذا – أكثر من مـــرة اليـــوم أن يسترق السمع لحديث المرأتين اللتين تجلسان تحت الشمســية المجاورة ولم يفلح في التقاط كلمة ممـــا تقـــولان، تتحـــدثان بسرعة وحماس وصوت خفيض وهذه موهبة لم يصادفها من قبل، اكتفى بالفرجة خلسة على الراحة والسعادة التي تنطلـــق من وجهيهما حين تضحكان بين لحظة وأخـــرى، ومتابعـــة نظراتهما إلى الماء حيث ثلاث فتيات جميلات يلعبن بـــالكرة ووسطهن يتحرك في حيرة صبي يحاول التقاط الكرة التـــي يتقاذفنها بينهن فيضحكن مـــن حيرتـــه وعذابـــه، الفتيـــات المراهقات يرتدين المايوهات وتبدو أجسادهن اللامعة قويـــة لدنة متماسكة مثيرة لكهل مثله. ولأنهن يقفن في الماء قريبًـــا

من الشاطئ بدت سيقانهن القوية مثل أعمدة مرمرية. لكنه كان قد، نهض، ووجد نفسه يمشي إلى بائع الآيس كريم الذي لم يكن يقف أمامه أحد.

- لوليتا.

نظر إليه الرجل في استغراب فاتحًا فمه بابتسامة واسعة، مظهرًا أسنانًا غير منتظمة، أدرك أن هذا النوع الجديد من الآيس كريم الذي تملأ الإعلانات عنه التليفزيون، نوع مخصص للأطفال، لم يتراجع، تناول قطعة الآيس كريم المتجمدة في الكيس البلاستيك الصغير الرفيع، وطلب قطعة أخرى، ثم عاد إلى زوجته باسمًا، قبل أن يصل إليها أعطى القطعتين لأول طفل قابله. أمام زوجته وقف وسألها:

- ألن تنزلي إلى البحر اليوم؟

- لن أنزل، وربما آخر النهار.

- لكنك دائما تحبين النزول قبل الظهر.

- كان هذا في العام الماضي.

ابتسم وقال:

- حقا، نحن في عام جديد الآن وعلينا أن نغير عاداتنا!

كانت تعرف أنه يغيظها بتعليقه، وكـان يعـرف أنهـا تعرف ذلك، فأسرع بالنزول في الماء. غطس غطسًا طـويلاً ووقف ينظر إليها. كانت طوال الأسبوع، وحتى أمس تنـزل قبل الظهر، رأها قد خلعت نظارتها السوداء فلمعت من بعيد عيناها الزرقاوان، كان حلمه وهو صغير أن يتـزوج مـن شقراء، ها هو تزوج من شقراء زرقاء العينين أيضًـا، أدرك أنه يقف في الماء الذي رأه منذ قليل وقد تراجع حتى الأفق، ليس هناك أسماك تحته أو بين قدميه، لا أعمدة رومانيـة ولا صخور ولا سفن، تذكر القبيلة التي قصدت بـلاد المغـرب فمشى أهلها في الصحراء حتى تعبوا فرأوا مدينة خضـراء فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا ليلتهم فلما أصبحوا لم يجدوا المدينة، بل وجدوا أنفسهم في الصحراء من جديد فمشوا في حزن شديد حتى رأوا مدينة أخرى أجمل من الأولى فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا وأصبحوا في الصحراء فمشـوا فـي حزن أشد حتى قابلهم راعٍ فقير قصوا عليه نبأهم فقال إن ما جرى يحدث كثيرا وسألهم عن وجهتهم فقالوا المغرب فقـال إن عليهم الاستمرار في المشي حتى تقابلهم مدينة ثالثة هـي

أول بلاد المغرب فمشوا ورأوا مدينة لكنهم لم يدخلوها أبدا؛ إذ ظلت تمشي أمامهم ولا يدركونها حتى انقطع خبرهم.

استدر فرأى الأفق فقرر أن يسبح إليه. هل يصبح مثل تلك القبيلة؟ لا أفق في الوجود، المسافة بين الأرض التي يسبح فوقها والسماء هي المسافة بين الأرض وبين السماء عند الأفق، الإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي يحب أن يعيش مخدوعًا، لكنه سمع صفارة الغطاس الذي يقف على السلم العالي فوق الشاطئ فالتفت. لماذا حقًا يفعل ذلك والبحر هادئ اليوم؟ ورأه يشير إليه بعصبية، لعل هنا دومات ما. رأى فتاة تقترب منه سابحة داخل عوامة سوداء. بدت مبتهجة، نظرت إليه بنزق طفولي وها هي تبتسم. رأى جسدها الممدود على الماء وبين العوامة ورديًا، وبريق ساقيها ذهبيًا تحت سطح الماء، لكن الغطاس لم يكف عن الصفير فأخذ طريق العودة في الوقت الذي استمرت فيه الفتاة تتوغل في الماء.

رأى على الشاطئ المرأة الشابة الجميلة عائدة لا تزال تبحث عن طفلها، وقد ازداد حولها الأطفال، إنها تمشي باكية وعلى مهل الآن قادمة من ناحية اليسار ذاهبة إلى ناحية

اليمين الأكثر امتدادًا. لا بد أن هذه المرأة لا تـــرى لامتـــداد الشاطئ نهاية، لكن من الذي قتل حقًا تلك الليلة؟ بعد يـــومين من الحادث وبينما هو مستلقٍ فوق السرير يقرأ قبـــل النـــوم وينظر بين الحين والحين إلى شعر زوجته الغزير المنســـرح على ظهرها العاري وهي نائمة فكر فجأة أن الرجل الأول لم يمت بل استطاع أن يمسك بالسكين من الآخر ثم يقتله بـــه، الأول هو الذي هرب في الزقاق إذن والآخـــر هـــو الـــذي هوى!!..

(٣)

ما كاد يعود ويجلس حتى وقفت، ابتسمت ومدت يـــديها إلى ظهرها تفك السوستة الطويلة للفستان الصـــيفي ومشـــت بتؤدة على الرمال تتساند على الهواء.

في اللحظة التي فكر فيها أن ينهض ليلحق بها، إذ تبدو حائرة في البحر بدونه، سمع صوت صفعة وصرخة فالتفت ليجد رجلاً يضرب فتاة تحاول أن تلملم ملابسها مـــن تحـــت شمسية قريبة وهو لا يسمح لها بذلك، ثم أمسك شعرها ولواه في قبضة يده، ودفعها للمشي مذعنة متألمة تبكـــي أمامـــه، والناس كلها على الشاطئ وفي الماء تتابع المشهد بدهشـــة لا تقل عن دهشته، حتى صعد الرجل بالفتاة السلم الذي يفضـــي إلى أعلى الشاطئ حيث الكورنيش. عندما أصـــبحت الفتـــاة والرجل، فوق الرصيف، واختفت سيقانهما خلـــف الكبـــائن العليا للشاطئ. بدأ كثير من الرجـــال والنســـاء يمتعضـــون، ويطلقون صيحات وعبارات الاستنكار، يتقبل النـــاس رؤيـــة

النساء بالمايوه على الشاطئ بسهولة، لكن ذلك يكون صــعبًا في الشارع العام مهما اقترب الشارع من البلاج، وكورنيش الإسكندرية ليس شارعًا صغيرًا مقفلاً. سمع النـــاس صـــوت احتكاك عجلات سيارة تنطلق بسرعه غاضبة، تعلقــت بهـــا أنظار الذين وقفــوا مــن المــارة فــوق الرصــيف، أدرك المصطافون أن السيارة حملت الرجل والفتاة معًا، نزل هــو بعينيه لكنه توقف بهما عند باب مفتوح لإحدى كبائن الـــدور الثاني، فلمح خلفه شابًا وفتاة، يقفان بثياب البحر، في عنـــاق هادئ ففكر في السعداء والتعساء.. على غير قصد تساءل في نفسه؟ إلى أي نوع ينتمي؟.

.. كان سعيدًا بتخلصه من مشاغله الكثيرة في القاهرة، والمجيء إلى الاسكندرية التي يعشقها، قال لزوجته «سندخل كل مطاعم المدينة الفخمة، وكل ملاهيها هذه المرة، وسنسهر حتى الصباح كل ليلة في أحد الفنادق، ونبقــى فــي شــقتنا ساعات قليلة بعد العودة من السهر، ولن أخبر أحداً من أهلي بقدومنا حتى لا يزرونا أحد فيضيع وقتنا، ولا يكلفنـــا أحـــد مضض الزيارات العائلية.. وقالت له، إنها أيضًا لن يشــغلها عنه شيء، ولا شغل الكانفاه الذي تحبه ،ولن تتخلى عنه حتى

على الشاطئ. وفي اليوم التالي لوصولهما طلبت منه أن يأخذها في السيارة إلى سوق المنشية لتشتري قطعًا من الكانفاه وخيوطًا وإبرًا، وافق على الفور، وكان بالليلة الماضية قد رأى حادث القتل الغامض، ومشى معها في السوق صامتًا، في عودتهما ضحكت ونظرت إليه بشقاوة مباغتة، ابتسم، لقد أدرك أنها تتذكر حديثه لها دائمًا حين يراها تشتغل في الكانفاة، ينظر إليها مبهوتًا ويقول "كلما رأيتك ترسمين بالخيط فلاحة تحمل جرة، أود لو أكسر الجرة، وأترك الماء ينزل على رأس الفلاحة، وحين ترسمين نسرًا يصعد إلى السماء تمنيت لو حملني معه وتركني فوق جبل أو بركان".. في أول مرة تضحك وتقول له "أنت مجنون" وفي آخر مرة قالت ذلك قال "نعم أنا مجنون لأني كلما وقفت في البلكونة فكرت في القفز ثم الجري على الأرض، أنا لا أفكر في الانتحار كما ترين لأني أنزل سالمًا وأجري.."

لكنها كفت عن الضحك للحظة، ثم ابتسمت وقالت:

- حلمت أمس حلمًا غريبًا

- أخيرًا.

- حلمت أني دخلت إلى مدينة تحول رجالها إلى أعمدة خشبية، وتحولت نساؤها إلى أشجار خضراء عريضة أورقت فروعها وأزهرت أطفالاً جميلة تعلقت بالأغصان.

(٤)

اشتدت الشمس، ملأ الضوء الأبيض القوي الفضاء، ارتفع الموج قليلاً، وكاد يصل إلى الصف الأول للمصطافين، فأفسد كل حفر الأطفال، الذين وقفوا يضحكون، وهم يرون الدلاء وأدوات الحفر يجرها الموج إلى البحر، ثم انطلقوا خلفها، يلحقون بما يستطيعون منها، ظهرت المرأة الجميلة الباكية من جديد، وقد ازداد عدد الاطفال الذين يحيطونها هذه المرة، بينما تباطأت خطواتها، وغاض لون وجهها أكثر، وملأت الدموع صفحته، بدت ذاهلة تمامًا لا تبحث عن أحد، هتفت بها إحدى السيدات، أن تذهب إلى أقرب نقطة بوليس فربما أخذه أحد إلى هناك، فكثير من الناس يرون أن هذه أفضل الطرق لإعادة التائهين إلى أسرهم، بدا لهم أنها لم تسمع هتاف المرأة، ظلت تمشي وحولها الأطفال بلا هدف، قال:

– مسكينة .

قالت زوجته التي كانت قد خرجت من الماء منذ قليل وجلست بالمايوه بعد أن جففت جسمها، وحرصت على أن تضع عليه فوطة كبيرة وهي جالسة.

- الشواطئ خطر على الأطفال دائمًا.

قال:

- صحيح هذا منظر نراه كل عام بالإسكندرية.

ومد يده إلى الحقيبة البلاستيك التي بها الساندوتشات ثم أخرجها خالية، سألته: جائع؟

- فكرت آكل لكن ننتظر قليلا.

مدت يدها إلى حقيبة أخرى من قماش، أخرجت قطعة كانفاه وكرة خيط وإبرة وقالت:

- هذه القطعة بها مشهد رائع، بحر وعرائس بحر يلعبن في الماء، هل ستسبح بينهن؟

ابتسم وسكت قليلا ثم تساءل:

- لماذا ارتفع الموج هكذا والوقت ظهر؟

شردت قليلا ثم أجابت:

- البحر زعلان.

- نعم؟

- زعلان. المفروض انك إسكندراني وتعـرف حـزن البحر.

- هذه أول مرة أسمع فيها ذلك؟

لقد قلته لك العام قبل الماضي

سكت ولم يعلق.. إنه لا يذكر شـيئًا مـن العـام قبـل الماضي، وربما من العام الماضي أيضا.. وبسرعة انشـغلت عنه بالشغل في الكانفاه باستغراق شديد، فانطلق يضحك لكن بصوت غير عالٍ، لم تهتم فقال:

- هل تعرفين لماذا ضحكت؟

- لقد تعودت على جنونك.

- هذه المرة تذكرت مجنونًا أكبر.

- تذكرت الحاكم بأمر الله.

- وماذا يضحك في هذا؟ كنـا نضـحك عليـه أيـام الدراسة، لكننا حفظنا سيرته.

- هل تعرفين ماذا فعل مثلاً ببعض النساء؟

لم ترد. اتسعت عيناها تستعد لاستقبال ما سيقوله باستخفاف.

- لقد ذهب إلى أحد حمامات النساء، كان به ثلاثون امرأة فسد الباب عليهن وبنى على الباب جدارًا ثم أشعل النار في الحمام.

في البداية تذمرت للحظة لكنها ابتسمت وانطلق هو في ضحك مجنون، حتى أنها تصورت أن الهواء الذي هب فجأة هو من تأثير ضحكته.

رأت المرأتين القريبتين منهما تنظران إليهما بشكل استنكاري، فهمست إليه:

- بالراحة الناس استغربت علينا، ماذا جرى لك اليوم؟!

كتم ما كان يمكن أن ينطلق من ضحك، وقال بصوت خفيض:

- أنا لا أعرف بالضبط ماذا جرى لي اليوم، أريد أن أحدثك عن حلم عجيب.

قالت هامسة بدورها متكلفة نفاد الصبر:

- لقد حفظت أحلامك كلها.

- لكني لم أحدثك أبدًا عن هذا الحلم، إنه أغرب من حلمك الذي حدثتني عنه، فهو بالمناسبة حلم قديم رأيته منذ أعوام كلما تذكرته أحببت أن أحكيه لك، ولا أعرف ما الذي شغلنى عن ذلك كل هذا الوقت.

- طيب تفضل احكي.

سكت لحظة ثم قال:

- وجدت نفسي أمشي في سرداب مضاء بشموع قليلة، في نهاية السرداب وجدت شخصًا مربوطًا إلى جذع شجرة عاريًا إلا من سروال ويضربه عدد كبير جدًا من الناس بالسياط يمزقون لحمه.

- يا ساتر. هذا كابوس وليس حلمًا.

- هل تعرفين من كان هذا الشخص، ومن الذين كانوا يضربونه؟

بدت الاسترابة في عينيها. قالت:

- إياك أن أكون أنا. إذا كنت أنا فلا بد أن الناس كانوا أهلك.

ضحك . كاد ينطلق أكثر وضع كفه على فمه، قال كأنه يناجيها:

- كنت أقتل أهلي وأموت نفسي.

طالت نظراتهما أحدهما إلى الآخر، تساءلت بهمس حنون:

- هل ما زلت تحبني حقاً؟
- ما زلت وسأظل.
- لماذا لم تنزل معي، البحر؟
- أنت التي لم تنزلي معي، ورغم ذلك فكرت ألحق بك.

بدأ الجالسون في الصف الأول من الشاطئ يقفون، النساء يشرن إلى عمال الشاطئ ومؤجري الشماسي ليأتوا ويخلعوا الشماسي عن الموقع الذي وصل إليه الماء الآن بشدة ويغرسونها في الخلف،الرجال فعلوا ذلك بأيديهم، انشغل

الأطفال بحمل ما يجدونه من أشيائهم، حملت النساء الحقائب القماشية والبلاستيكية التي بها الطعام أو الملابس وكذلك الشباشب من كل نوع ولون، لقد ارتفع الموج عاليًا وطال كل شيء.

ولأن الذين في الصف الثاني لم يتزحزحوا عن أماكنهم حدث اشتباك بالكلمات في أكثر من موضع، واضطر الكثيرون ممن كانوا يشغلون الصف الأول إلى الرجوع خلف الصف الثاني، لاحظ هو أن باب الكابينة العليا الذي كان مفتوحًا، ويتعانق خلفه الفتى والفتاة، صار موصدًا الآن، لقد مضى وقت طويل ولا بد أنهما انصرفا، ورأى فتيات كثيرات يخرجن من الماء في هلع تهتز أجسادهن اهتزازات خفيفة جاذبة، تخايله بفعل سقوط الضوء على اللحم المبتل، وبدأت ريح تجري بعرض الشاطئ غير قادمة من البحر، تحمل سفوفًا غير كثيفة من الرمال، لاحظ أنه قد ابتعد كثيرًا عن المرأتين اللتين كانتا تتكلمان همسًا وبسرعة، لماذا حقًا كان يريد معرفة شيء مما تتحدثان فيه؟ لا حظ أن كثيرًا من الفتيات اللاتي خرجن من الماء قد اتجهن إلى بائع الآيس كريم الذي اتسعت ابتسامته ورأى امرأة بدينة وامراتين

صغيرتين وعددًا كبيرًا من الأطفال يبكون حولهن غير بعيدين عنه، ويتحدثون بصوت عالٍ:

- لا بد أن نعود إلى البحر.

- البحر هاج، جدتكم تقول إن البحر لا يفعل ذلك إلا إذا كان هناك غريق.

نظر إلى زوجته التي كانت قد سقطت منها قطعة الكانفاه وهي تنهض حين علا الموج وصعد إلى الشاطئ فابتلت وغيرتها الآن بقطعة أخرى عليها الخطوط الخارجية لدرويش يدق على دف. فكر أن يطلب منها مغادرة الشاطئ مثل الكثيرين الذين يفعلون ذلك الآن، لكنه تذكر ما حدث لها أمس حين هبطت الشمس في الماء وغادرا الشاطئ متأخرين، فقد تشبعا بجمال غروب الشمس واشتعال الأفق فوق الماء الأزرق، ونزل هو إلى الماء مجذوبًا إلى دفئه المسائي الحنون، وطلب منها أن تشاركه مرة نزول البحر عند المغيب حيث يختلف الماء، لونًا وطعمًا ورائحة أيضًا، ووعدته أن تفعل ذلك وقبل الانصراف إلى الشارع الجانبي الذي يفضي إلى العمارة التي بها شقتهما قررا الدخول في شارع آخر قريب به سوبر ماركت تعودا أن يشتريا منه

حاجتهما كل عام، ما كادا يدخلان الشارع، ويبتعـــدان قلـــيلا عن الكورنيش حتى سمعا ضجة، كانت زمرة من الأطفـــال تطارد امرأة مخبولة، وتقذفها بالأحجار الكبيرة والصـــغيرة والمرأة تجري مذعورة وتقفز فوق الأحجار في هلع فيتراجع الأطفال، ثم تجري فيتبعونها صارخين مهللين، بينما وقــف عدد من الرجال والنساء في البلكونات ينهرون الأطفال الذين لا ينصاعون لهم في نفس اللحظة دخلــت عربـــة بـــوليس "بوكس" الشارع مسرعة تثير الغبار وتوقفت فجأة أمام بـــاب إحدى العمارات ثم قفز من صـــندوقها الخلفـــي عـــدد مـــن الشرطة، وقفز من جوار السائق ضـــابط شـــاب وانـــدفعوا جميعًا داخل العمارة، توقف الرجال والنساء عن الصراخ في الأطفال وتابعوا المشهد الغريب لعربة البـــوليس الـــذي لـــم يستمر إلا لحظات حيث خرج الجنود والضباط من العمـــارة يدفعون أمامهم ثلاث نساء عاريات ملفوفات فـــي مـــلاءات مضطربة، وخلفهم أيضا يدفع عدد آخر من الجنـــود بثلاثـــة عراة تمامًا يسترون عوراتهم بأكفهم، فـــي تلـــك اللحظـــات القصيرة كانت ثلاث عربات ملاكي قد دخلت إلى الشـــارع، وقفز من كل منها عدد من الرجال والشباب والنساء حـــاولوا

الفتك بالرجال والنساء العراة، لكن رجال الشرطة منعــوهم من ذلك، قفز النساء والرجال العراة إلى صـــندوق العربـــة الخلفي ومعهم رجال الشرطة، وامتلأت البلكونات بالنـــاس، يقذفون باللعنات والبصقات، على الجميع، وكف الأطفال عن مطارد ة المرأة المخبولة التي وقفت بعيدًا تنظر لما يجـــري بسعادة طفولية وعينين براقتين وانطلقــت ســيارة الشـــرطة فجرى أصحاب السيارات الملاكي إلى سيارتهم ليتبعوها، لكن الأطفال كانوا قد سبقوهم في متابعة ســيارة الشـــرطة وراحـــوا يقذفونها بالحجارة حتى سبقت الجميع، وقالت زوجته باسمة:

- العجيب أني كنت نويت اليوم أن أنزل معك إلى الماء عند المغرب.

كان الهواء الحامل للرمال يـــزداد، وازداد انصـــراف الناس من الشاطئ قال:

- يمكن أن نأكل الآن وننتظر. قد يهدأ الحال.

مدت يدها إلى حقيبة الطعام، كان كثير من السندوتشات قد وصل إليه الماء، قالت:

- لا مفر من العودة إلى الشقة الآن.

كان يدرك أن الماء طال الطعام ولا يعرف لماذا طلب منها أن يأكلا، هل أراد منها أن تكتشف ذلك فتطلب العودة؟ على أي حال لم يعلق، انشغل بمتابعة المرأة الجميلة الباكية التي لم تعد تمشي على الشاطئ. رآها تمشي فوق اللسان الصخري الممتد طويلاً في البحر يفصله إلى منطقتين واسعتين للاستحمام، كانت وحدها هذه المرة، رآها تجلس عند آخر نقطة فوق الصخور، الموج يضرب في جوانب الصخر العالية فيرتفع رذاذه يطولها وينتشر حولها لكنها جلست غير مبالية بشيء تنظر إلى الأفق، ورأى وهو يعود بعينيه، الغطاس النوبي وقد وقف فوق السلم الحديدي ينزل الراية البيضاء ثم يرفع الراية السوداء ويصفر بجنون لكل من في الماء وفي لحظة ارتفع الموج أكثر وأصدر هديرًا عاليًا فطال الصف الأول للعدد القليل الباقي من المصطافين، كان ذلك الصف هو الثاني منذ قليل، الثاني لم يقتل الأول حقًا تلك الليلة، لكن الأول لم يقتل الثاني أيضًا كما ظن بعد ذلك، الآن يدرك بوضوح أن شخصًا ثالثًا ظهر خارجًا من زقاق مظلم وقتل الاثنين معًا ثم عاد ليختفي في الزقاق.

١٩٩٢

مشكلات الجلوس

المقهى الجديد في الحي القديم لفت انتباهه بنظافته غير العادية فقرر أن يكون جلوسه فيه، وحده أو مـــع أصـــحابه أو من يشأ لقياه.

الحوائط لامعة لأنها مغطاة بالسيراميك الوردي الجديد، والأعمدة أكثر لمعانًا رغم أن لون السيراميك حولها يميل إلى البني، أما الأرض فهي أكثر لمعانًا من الحـــوائط والأعمـــدة رغم اللون البني القاتم للسيراميك!

في السقف عدد كبير من المراوح تدير الهـــواء منعشًـــا وغزيرًا، والمكان لا يكون مزدحمًا في الصباح ، وفي المساء تظهر المقاعد على رصيف الشارع حيث الهواء القادم مـــن الجهة الشمالية عذبًا سلسبيلاً!! والرجل صاحب المقهي، فيما يبدو من الموسيقى التي يطلقها في المكان، جاء من عصـــر آخر، فهو بالليل يترك صوت فيروز ينساب في الفضاء، وإذا تقدم الليل أكثر، أعطى الفرصة لصوت أم كلثوم، أمـــا فـــي

المساء والعصاري فهو يترك مساحة كبيـــرة لصـــوت عبـــد الحليم حافظ، وفي الصباح بعد إطلاق البخور الجـــاوي مـــع صوت الشيخ رفعت أو الحصري، يترك الفرصة للموســـيقى الخفيفة، حتى إذا انتصف النهار تسيد صوت عبـــد الوهـــاب الوقت مع فواصل من الموسيقى الشرقية، ولقد أدهش الناس حقًا من هذا المقهى الجميل كيف يخلو من التليفزيون، وكان ذلك سببًا كافيًا لعدم ظهور الدهماء والغوغاء على حد قـــول أحد الرواد الأذكياء، لكن أحدًا من الجالسين لم يعرف مـــاذا في سيراميك الجدران يجعل الجالس يـــرى أمواجًـــا تتقلـــب بهدوء، فوقها سفن صغيرة «تمخر عباب البحر» ترتفع بهـــا الأمواج وتنزل في أناة، وحولها الدلافين تقفز، وكثيـــرًا مـــا يبدو أيضا أن هناك رجالاً ونساءً يرقصون رقصات هادئـــة أثيرية بين ستائر خفيفة يطيرها هواء ناعس!!..

لا يعرف الجالس هل هذا سحر مدفون في الســـيراميك، أم هو من أثر الموسيقى وأصوات الغناء الشـــجية، أم مـــن برودة المكان المنعشة؟

هذا ولقد جرب أكثر من شخص الحديث بصوت عـــالٍ فلم يفلح، هكذا دون تدخل من أحد، صارت أصوات الجالسين

خفيضة فور دخولهم إلى المقهى فلا يسمع الصوت إلا من يتوجه إليه صاحبه وبالكاد، والحقيقة أن رواد المقهى تحدثوا في كل هذه الأمور الغريبة للمكان بعض الوقت ثم صارت من الأمور العادية، لكنه أخفى أمرًا لم يحدث أحدًا من الجالسين، ولا من أصحابه، فيه.

لقد اكتشف أنه لا يستطيع أبدًا الجلوس في الخارج. قوة جذب سحرية تشده إلى الجلوس داخل المقهى وليس بين المقاعد المفروشة على الرصيف، واكتشف أنه بعد أن يشرب قهوته، ويتوه وقتًا مع الخيالات السحرية على الحوائط والأعمدة، يرى فجأة الأعمدة اللامعة وقد بدأ السيراميك يتخلع عنها ويتساقط وتظهر هي تحته جهمة من الأسمنت الأسود والزلط، ثم تروح بدورها تُشرَخ ثم تتهدم على مهل، وعلى الفور تلحق بها الجدران التي تتهاوى بعد أن يسقط ما فوقها من قطع السيراميك، وتتناثر حجارتها، وقبل أن يلحق السقف بالجميع يرفع هو عينيه إليه فيجده في مكانه.

لم تشغله هذه الرؤيا، وظنها حالة مؤقتة ستمضي إلى حال سبيلها، لكنها راحت تتكرر معه كل يوم، حتى أنه لم يعد قادرًا على النظر إلى السقف فهو أيضًا يسقط فوقه،

ولاحظ أصحابه بعد ذلك أنه لا يجلس في مكان واحد، ففي كل يوم يغير مكانه داخل المقهى، كان يفعل ذلك بطريقة لافتة للنظر، ولم يسأله أحد، وهو لم يكن قادرًا على البوح بأنه يفعل ذلك ؛لتفادي الرؤيا الكابوسية هذه، لكنها صارت كلما جلس تتجلى له، وفي أي مكان من المقهى، ولقد اشتدت فلم تعد تحدث بعد أن يشرب قهوته ويتشبع من الخيالات الجميلة، بل صارت تحدث بمجرد الجلوس، أدرك أنها تنقطع فقط حين يقف، في اللحظات التي يدفع فيها الحساب للجرسون، أما قبل ذلك فلا يخفيها غير إغماض عينيه، ثم لم يعد ذلك يخفيها أيضًا، وهكذا لم يعد قادرًا على الحديث مع أحد بتركيز، وجرب أن يقف قبل أن يدفع الحساب للجرسون فاختفت الرؤيا الكابوسية، وهكذا أدرك أن المشكلة هي الجلوس، وفي هذا المكان ،هذا المقهى الجديد الملعون.. لكن هل يستسلم؟ لقد قرر أن يتجنب الأمر بكل إرادة ممكنة. لماذا حقًا لا يجلس خارج المقهى على الرصيف، لماذا يستسلم لقوة الجذب الخفية التي تشده للجلوس داخل المقهى.. سيفعل ذلك من الغد، ومن الأفضل أن ينقطع عن المقهى كله بعض

الوقت، وربما تنتهي الأزمة كلها إذا تحدث فيها مــع أحــد، زوجته أو زملائه في العمل.

لكنه لم يستطع أن يتحدث مع زوجته في شيء. وما إن دخل إلى شقته وجلس حتى رأى الجدران التي أمامه تتهاوى وتتهدم وبسرعة وجد نفسه يقف.

- مالك؟

- لا شيء.

سألته زوجته حيت رأت عرقًا كثيرًا على جبهته وعنقه، جلست ولم يستطع الجلوس، اتجه إلى غرفــة النــوم وخلــع ثيابه، وتمدد فوق السرير بعد أن ارتدى بيجامته، وأغمــض على الفور عينيه، كان لا بد أن يستدعي ما مضى من حياته، إنه لا يذكر أنه قرأ شيئًا عن الجنون، ولا يعــرف أن فــي تاريخ حياة عائلته مجنونًا واحدًا، قد يكونوا أخفوا ذلك عنــه، لكن أحدًا لا يستطيع إخفاء ذلك. الحديث عن الجنون لا يمكن إخفاؤه، له إغراء خاص، وكثيرًا ما يبعــث علــى الابتســام والبهجة وهو مأساة كاملة، وهو أيضًا لــم يرتكــب خطايــا كبيرة، حتى زوجته العاقر لم يطلقها، ولم يعــد يفكــر فــي

"الذرية"، لقد تزوجها بعد قصة حب عنيفة، وهو الآن يستحق جائزة أكثر الأزواج احتفاظًا بحرارة الحب حتى أنه يستعد لتأثيث دار حضانة للأطفال تعمل فيها زوجته فيكون لديها بدل الطفل الواحد عشرات الأطفال، إذن سينتهي الأمر وحده ما دام هو يحاول مقاومته بإرادة قوية، وما دام هو الشخص ذاته الذي يعيش بلا خطايا، يحتاج فقط إلى أن يقص الأمر على زملائه في العمل، سيجعله حكاية فكاهية، وتعجل بالفعل وصول الصباح، وبالكاد يدخل إلى حجرة زملائه الموظفين ويجلس، وقبل أن يشرع في أي كلمة، رأى الحائط المواجه يتهاوى ويتهدم على زملائه ومكاتبهم، فوقف على مهل يائسًا، واتجه ناحية الحائط المواجه هذا، وجلس خلف مكتب آخر فرأى الحائط الأول يتهدم وبعنف فوقف كمن لدغه عقرب، لم يكن قد وصل إلى العمل غير ثلاثة زملاء راحوا ينظرون إليه صامتين مدهوشين وهو بدوره ترك المكان كله ونزل إلى الشارع ليجلس على أول مقهى يقابله في حالة من اليأس الكامل خافضًا عينيه إلى الأرض حتى إذا أتى الجرسون ورفع إليه عينيه رأى من خلفه جدران البيوت كلها

تتهاوى بنوافذها وشرفاتها فترك المكان دون كلمة وتابعه الجرسون بنظرة استغراب.

كان الشارع طويلاً لكنه لم يعد يمشي بائسًا ولا على مهل، تملكته حمى مجنونة وصمم على الانتصار، وراحت عيناه تبحثان عن كل مقهى في الطريق، ويدخل المقهى بإرادة حقيقية ويجلس لكنه لا يستطيع الاستمرار أكثر من دقائق فسرعان ما تتهاوى كل الحوائط المقابلة، ويتمسك بالبقاء ولا يستطيع ، وينتقل من مقعد إلى آخر، ومن ركن إلى آخر، وتطارده الرؤيا فينهض ويترك الشارع إلى آخر، ولا يدري أنه قد اخترق أكثر شوارع المدينة، وأن النهار قد مضى لكن لا أضواء حوله، فما زال ضوء الشمس يصل حتى بعد سقوطها في الغرب، هذا هو المقهى الأخير الذي سيجلس به اليوم وسينجح، وجلس فتهاوت كل البيوت المقابلة، وخرج مسرعًا إذ أحس هذه المرة بصوت السقوط المدوي فوق رأسه وأطلق ساقيه للجري ولا يعرف من أين أتته كل هذه القوة، لقد وجد نفسه وقد صعد ربوة من الأسفلت وتوقف متعبًا ينظر وراءه، لم يكن هناك ثمة مدينة يعرفها

ولامدينة لا يعرفها كانت هناك رمال واسعة وأطـــلال آثـــار قديمة ومقابر لا تنتهي.

مسحوق التمساح

(١)

وضع القطعة في يدي ثم أغلقها عليها مبتسمًا.

- سوف تذكرني كثيرًا.

رأيت السياح يدفعون في القطعة نفسها عشرات الدولارات، سياح من الرجال والنساء أيضًا، يتأملون القطعة التي يأخذها كل منهم ويضحكون.

النساء تحمر خدودهن للحظات لكن سرعان ما يسوي الضحك بين الجميع، النيل يترامي أمامنا هادئًا فوقه قوافل البوارج السياحية، الشمس ساطعة وحرارة الجو جعلت الجميع شبه عراة.

بسرعة صعدت إلى السيارة الجيب آمرًا السائق المجند أن يسرع إلى المطار، انتهت مهمتي في التدريب هنا في أسوان مع عدد كبير من الضباط الكبار! وكعادة كل من يأتي هنا اشتريت كميات من ثمار الدوم والتمر هندي والكركديه والبلح الإبريمي والتوابل. وضعت القطعة الصغيرة في جيب

مستقل من الحقيبة، ثم وجدت نفسي أخرجها وأضعها في جيب سترتي الميري من الداخل.

(٢)

في الإسكندرية تركت الحقيبة لزوجتي تخرج ما فيها، انفردت أنا بالقطعة الناشفة جدًا في غرفتي أتأملها لأول مرة، كنت فكرت أن آخذها إلى دورة مياه الطائرة أتاملها على مهل حيث كنت في شوق كبير لذلك، لكني تراجعت، ما الذي يمنع أن تكون دورة المياه مراقبة بكاميرات خفية بسبب الإرهاب الجاري هذه الأيام؟ سيكون الأمر مخجلاً أن يحمل ضابط بوليس ذو رتبة كبيرة قطعة كهذه!

كنت محتاجًا أن أعرف لونها على الأقل. لم أصل إلى لون نهائي، خضراء ضاربة في البني مائلة إلى الرمادي! أخاديدها كثيرة رغم أنها لا تزيد عن عشرة سنتيمترات طولاً وخمسة عرضًا، سمكها لا يزيد عن السنتيمتر. ابتسمت، كيف حقًا أذيب قطعًا منها في الشاي أو اللبن أو أي مشروب

ساخن أو بارد كما يقال! أنشبت فيها أسناني مترددًا، خُيِّل إليَّ للحظة أني أنشب أسناني فـــي بطـــن التمســـاح! ابتســـمت .أغمضت عيني وضغطت بأسناني عليها فصرخت! انكسرت سنتي المجاورة للناب الأيمن.. أجل. أبعدت القطعة عن فمي فرأيت سنتى تسقط أمامي على الأرض ملوثـــة بالـــدم، فـــي المرآة وجدت مكان سنتي غائرًا وواسعًا أكثر مما توقعـــت، أصابني الغم والإحباط، لو أن ضرسًا هو الذي انكسر لكـــان الأمر أهون لأنه بعيد هناك داخل الفم، مكـــان هـــذه الســـنة اللعينة يظهر لكل مخلوق، وأنا ضابط بوليس برتبـــة عقيـــد، وسأحصل في الترقيات القادمة على رتبة عميد فيا لـــه مـــن شكل مضحك لرجل بوليس صارم! ستهتز سطوتي بالتأكيد، مهما شخطت ونطرت سينظر الجنود والضباط والمتهمـــون والمجرمون إلى مكان السنة الخالي ويضحكون في ســـرهم، أو علنًا بمجرد أن أعطيهم ظهري، كما أن سقوط هذه السنة اللعينة قد يتسبب في تآكل الحروف أو تبادل مواقعها فـــأنطق السين شينًا، والتاء ثاءً وهكذا.

- لماذا تضحكين على ضياع سنتي؟
- أنا أضحك على ضياع عقلك.

- معك حق. أنا غلطان!

كانت تعرف كل شيء لذلك ضايقني ضحكها بحق، وضايقني أكثر أنها هزت كتفها في لا مبالاة وانصرفت من أمامي، والحقيقة أن موقف زوجتي دائمًا يحيرني، أعرف أنها كأنثى لا يمكن أن يكون هذا شعورها الحقيقي، لكنها تبدو دائمًا مجاملة لي، ولا يبدو أنه ينقصها شيء، والذي ينقصها هو الذي أحاول أن أوفره الآن، وهو ما لا تستغني عنه امرأة، ولا رجل في الحقيقة، فما بالك بامرأة جميلة ورجل قوي.

لقد تأزمت الأمور بيننا أكثر من مرة في العامين الأخيرين، لكنها لم تزد عن ابتسامة ودود. تضحك طبعًا حين يحدث التراجع أو التراخي لكنها سرعان ما تنهي الضحك وتبتسم بود ولا يبدو أبدًا أنها تضايقت وأعرف أنا أن هذا كله غير حقيقي فهي فقط تريد أن تشجعني باعتباره أمرًا عارضًا سينجلي، كثيرًا ما كنت أحتد عليها حين تبدي بعض التمنع في بداية اللقاء، وتزيد فيه قليلاً ناسية حالي فيحدث ما أخشاه من تراجع، ونهرتها أكثر من مرة أن تقبل عليَّ سريعا في اللحظة. التي أهم فيها بها، فنظرت إليَّ نظرة طويلة عميقة

أخافتني وأذلتني، لم أعد إلى لومهـــا، وحاولـــت مسترشـــدًا
ببعض كتب علم النفس، لم أعرض نفســـي علـــى طبيـــب،
وشحنت نفسي باليقين بأن ما يحدث أمر عـــارض وكانـــت
النتيجة باهرة.. لكن الأمر لم يزد عن لقاء واحد في الشـــهر
يأتي في الغالب بلا موعد، والحياة حولي للأســـف كضـــابط
شرطه بصفة خاصة، مليئة بالجنس، فمـــن ناحيـــة يقتـــرب
عمري من الخمسين، وهذه هي المراهقة الثانية كمـــا يقـــول
العلم، ثم إن قوامي كرجل شرطة رياضي، لا يـــزال شـــابًا!
والفتيات هذه الأيام يتفنن في الملابس الضيقة بشـــكل مثيـــر
للغاية، ثم أنني أخطات وركبت على السطح "طبق هـــوائي"
كبير فلا أنام بالليل قبل أن أحقق رغبتي في التجوال علـــى
ملاهي العالم وأفلامه المثيرة، يساعدني أن ابني فـــي كليـــة
الشرطة فهو شبه غائب، وابنتي تنام في غرفتها مبكرة كمـــا
عودناها تمامًا، وطبعًا لن أتحدث عن النساء اللاتي يأتين إلى
قسم البوليس متهمات أو شاكيات وكيف يتفـــق أن بعضـــهن
يغرين بالجنس الفاضح الذي لا يصمد أمامه إلا رجل شرطة
حقيقي، ناهيك عن حالة القلق العنيف الذي يســـببه موقـــف
الجماعات الإرهابية الغامض، فالواحد لا يعرف أين ومتـــى

ستأتيه رصاصات الإرهاب المصوبة إلينا نحن الضباط في كل وقت. صحيح أنني في الإسكندرية التي لا تزال أكثر أمانًا، لكن القصص التي أسمعها في دهاليز الشرطة عن ضحايا الإرهاب من رجالنا تجعلني في قلق مستمر. قلق غريب يزيد من رغبتي الجنسية، ويزيد من أزمتي، جسد من تراب وروح من أثير، هذه هي المشكلة.

(٣)

ركبت بسرعة سنة من العاج مكان سنتي المكسورة، كان حرصي على ذلك أكبر من أي شيء، ثم عدت من جديد إلى القطعة السحرية التي أعطانيها عباس المطراوي، كنت قد حفظتها بين الأوراق شديدة الخصوصية في الدرج المسحور من الدلاوب، لا يعرف أحد كيف أمضيت الأسبوعين السابقين على تركيب السنة الجديدة، كنت أرى في عيون الجميع رغبه في الضحك، أو على الأقل الابتسام، فصارت نظرتي للجنود أكثر صرامة، وللضباط وصف

الضباط، صرت أنهي الحديث، أي حديث، بسرعة وبعنف، زامًا شفتيَّ، مطلقًا نظرة نارية من عينيَّ، ثم أشيح بذراعي لمن أمامي بالانصراف، كدرت الجنود المجندين تكديرًا لا مزيد عليه دون ذنب واضح، حتى أن بعضهم كان يبكي ، كما علمت، بالليل من أثر ضربي فيه بلا سبب. الأغبياء لم يستطعوا إخفاء ابتساماتهم وهم يرونني بسنة مكسورة، خانتهم الابتسامات وتخايلت على جوانب شفاههم.

أمسكت القطعة العجيبة في يدي من جديد، هل يمكن أن تكون قطعة من المعدن ضللني بها البائع اللعين؟ طرقتها على الأرض لم تصدر صوتًا معدنيًا، أصدرت صوتًا مكتومًا لا يشي بشيء، فقط ذكرتني أن أرضية شقتي لا تزال من البلاط القديم، كثيرًا ما طلبت مني زوجتي أن تخلعه وتركِّب بدلاً منه السيراميك الذي صار شيئًا عاديًا في البيوت الآن، الحياة وتعليم الولد والبنت يقضون على كل ما أكسبه من مال، طبعا الخيال المريض لن يتصور ضابطًا برتبة كبيرة غير قادر على تغيير بلاط الشقة، ويمكن أن يتصور أحدكم أن الشقة كبيرة جدًا، والحقيقة أنها لا تزيد عن مائة متر، وأنني ضابط نظيف أعيش براتبي، وما أحصل عليه من

حوافز، وهذا كله لا يصل إلى مـــا يحصـــل عليـــه عامـــل السيراميك في أقل من شهر، أنا، هذه حقيقة، لا أقبل رشاوى من أي نوع، ولا الهدايا، وأقصى ما قبلته، ولا زلت أقبلـــه، صندوق أوراق كلينكس يحرص تاجر جملة يقع محله أمـــام قسم الشرطة أن يرسل عاملاً من عنده يضعه فوق مكتبي كل صباح، أنا مندهش من إصراره على ذلك منذ عامين، ولقـــد انتظرت أن يطلب مني شيئًا لأرفض وأتخلـــص مـــن هـــذه العادة، لكنه لم يطلب أي شيء كثفت المراقبة السرية عليـــه فلم أصل إلى أي شيء، يمس سمعته، لقد حـــاول أن يرســـل حامل بخور ليقوم بتبخير القسم كل صباح كمـــا يفعـــل فـــي دكانه، صرفت حامل البخور وأرسلت إلى تاجر الجملة طالبًا أن لا يعود إلى ذلك، أدهشني إنه جاءني مرتبكًا جدًا، وحزينًا جداً، فالبخور فضلاً عن رائحته له أسراره وبركاته، وهـــذا التاجر يحمل وجهًا مضيئًا يؤثر في مشاهده، لكنني لم أتـــأثر، وقلت له يا حاج أنت تفتح نشاطك بالبخور كل صباح جلبًـــا للبركة والرزق، ونحن في الحقيقة لا نفتح القسم كل صباح، ولا نغلق بالليل أو النهار، والقسم بالذات يكون عظيمًا، وكفؤاً

كلما قل فيه الرزق وزالت منه البركة؛ لأن كل رزقنا من المجرمين والقتلة والمشاكل التي لا نهاية لها.

ضحك الرجل من قلبه ومضى ولم يرسل إليَّ البخور وإن ظل حريصًا على إرسال علبة المناديل الورقية..

تضايقت طبعًا من عدم قدرتي على تغيير بلاط الشقة، وأكثر لأن أحداً لن يصدق ذلك، لكني في النهاية ذهبت إلى المطبخ، ووضعت القطعة داخل مطحنة الخلاط، وضغطت على زر الكهرباء فاهتزت المطحنة اهتزازات عنيفة سيطرت عليها بيدي بمجهود كبير، وراحت تئز بما يشي أن سلاحها لا يستطيع الدوران حيث تعوقه القطعة الجهنمية، ثم راح السلاح يصطدم اصطدامات مكتومة بالقطعة العجيبة، وشممت رائحة احتراق عازل الملفات داخل الخلاط ثم بسرعة خرج الدخان من القاعدة ومن كل ناحية. نزعت الفيشة من الكهرباء قبل أن تحدث قفلة كهربية بالبيت ووقفت مندهشاً أنظر إلى الخلاط المحترق، وكانت زوجتي قد حضرت على أثر انتشار رائحة الاحتراق، كشفت غطاء المطحنة ورأت القطعة العجيبة فلم تتمالك نفسها وضحكت.

- ألا زلت تحتفظ بها؟ في البداية كسرت سنتك، والآن حرقت الخلاط.

لم أرد ،أمسكت بالقطعة التي صارت ساخنة، ووجدت نفسي أقول:

- هل يمكن أن تستعيري لنا خلاط أختك؟

أختها متزوجة وتعيش مع زوجها في الشقة المقابلة لنا في البيت نفسه.

- وماذا ستفعل إذا احترق خلاطها أيضًا؟

- أرجوكي استعيري لنا خلاط أختك.

طاوعتني وأحضرت خلاط أختها، لا بد أنها رأت في عينيَّ هذا التصميم الغريب والمتوحش والذي أحست به والرغبة في الانتصار على هذه القطعة؛ ولأن خلاط أختها من البراون الألماني الأصلي استبشرت خيرًا، لكن الأمر انتهى إلى الكارثة نفسها. قلت في ضيق:

- سأشترى خلاطين الأسبوع القادم من معرض الشرطة الذي سيقام في نادي سموحة بمناسبة الصيف.

قالت زوجتي بدهشة:

- الصيف؟!

- أجل.

ولم يعد أحد منا إلى الكلام مع الآخر بقية اليوم.

(٤)

شغلتني بعض الأحداث الطارئة، من يعمل في الشرطة يعرف معنى ذلك، أرجأت النظر في القطعة اللعينة حتى أنتهي من هذه الأحداث، لم أكن أعرف أني سأهلمها هذا الوقت الطويل حتى هجم علينا الصيف، لكن الذي حدث خلال هذا الوقت أن شخصًا ما لعله عباس المطراوي، البائع الذي باع هذه القطعة لي، في الحقيقة له جسم عباس المطراوي، ووجه تاجر الجملة المنير المريح، هذا الشخص كان يأتي إليَّ ويجلس تحت قدمي كل ليلة، ويضع في حجره كمية صغيرة من البلح الإبريمي، ويبدأ في استخراج النواة منها، ثم يخرج من جيبه قطعة شبيهة بالقطعة التي أحتفظ

بها، وبسكين حاد يبدأ في تقشيرها مثـل القلـم الرصـاص، ويتساقط قشرها كبرو القلم في ورقة على حجره، ثم يبدأ في حشو البلح الإبريمي من هذا القشـر، ويمـد يـده يجـذب "سبرتاية" قريبة منه ينفخ فيها فتشتعل وينطلق منهـا بخـور دون أن يكون فوقها بخور! ثم تظهر فوقها طاسـة قطرهـا يزيد على المتر، طاسة نحاسية صفراء تميل إلـى الحمـرة، أخاف أن تهتز وتسقط وهي لا تهتز ولا تسقط وهـو ينظـر إليَّ ويضحك على انزعاجي وخوفي ثم يلقي بالبلح الإبريمي المحشو ببرو القطعة داخل الطاسة التي يظهر فيهـا السـمن البلدي فجأة ويأخذ في التقليب بملعقة خشبية طولهـا لا يقـل عن المتر، ثم يرفع الطاسة يقدمها إليَّ بيديه فإذا بها لا يزيد قطرها عن عشرين سنتيمترًا، وأمسكها بيدي بينما يأخذ هـو منها البلح، بلحة بلحة، مغموسًا في السمن، ساخنًا، محشـوًا بالبهجة، لامعًا كالكهرمان، ويضعه في فمي، وينـزل منـه العسل على جوانب شفتي، ويتركني ويخـرج مـن الغرفـة بسلام، مطفئًا النور الذي كان مضيئًا من مصدر خفي، وأجد شيئًا يتحرك في، وأجد نفسي آخذ زوجتي في حضني وأسبح بها في نهر من عسل كنت نسيت طعمه، وفي الصباح تنظر

إليَّ مندهشة وأرى النعمة تطل من بشرتها، والفرح السحري يطل من عينيها ، وتمسك بيدي قبل أن تنهض تقبل أصابعي كأنثى حقيقية راضية مرضية شبعانة مروية، وأدركت أنـــه السر الذي يجب أن لا أقوله لأحد، ولا حتى زوجتي، ونسيت أمر القطعة اللعينة التي أغناني عنها هذا الزئر الليلـــي، ثـــم صرخت وجدتها وجدتها، إنها السكينة التي تحل اللغز، كيف فاتني ذلك، وبحثت عن القطعة كالمجنون، وجريت بها إلـــى المطبخ وأمسكت بالسكين وضغطت عليها بقـــوة فانكســـرت فرحت أجرب بقية السكاكين حتى تكســـرت كلهـــا، وكانـــت واحدة قد انغرست في كف يدي فجرحتني ولم أدرك إلا والدم يغطي القطعة اللعينة، ويغطي يدي وزوجتي تقف مندهشـــة، تركت كل شيء وغسلت يـــدي وربطتهـــا بشـــاش بعـــد أن وضعت فوقها الميركيروكروم، وأخذت القطعة اللعينة أعيدها إلى مكانها مكتفيًا بالمنام، لكن بالليل، لم يـــأتِ إلـــيَّ أحـــد، وازداد ارتباكي في الصباح، وكثر عليَّ الغم، وقلت لزوجتي

- استعدي سنذهب عشرة أيام إلى المصيف.

(٥)

كان المصيف حلاً سحريًا، فالهدوء والأمان ساعداني كثيرًا بعد اختفاء زائر المنام الأسطوري، عدت إلى نسيان أمر القطعة اللعينة من جديد، كان من المقرر أن نمضي بالمصيف عشرة أيام فأمضينا عشرين ، ولقد ضجر الولد والبنت من المصيف الهادئ الآمن هذا وتركانا إلى فيلا جدهما في مراقيا حيث الصخب والحيوية، تمسكت أنا بالهدوء، والحقيقة أني كنت أتمسك بالأمن، فالمصيف صغير، وفي المنطقة الخلفية لمعسكرات قوات الأمن، وهي منطقة يندر فيها الاستحمام، لكنها أصلح مكان للاستجمام! الوصول إليها برًا يستلزم دخول معسكرات الأمن، وهذا غير مصرح به لأي أحد، والوصول إليها من البحر مسألة لم تعرفها جماعات الإرهاب حتى الآن..وهكذا ساعدني المكان الهادئ الآمن على الاستمرار في المظهر غير العادي الذي تسبب فيه زائر المنام، وأحببت المكان جدًا رغم أن النساء فيه يرتدين ملابس حشمة ولا ينزلن إلى البحر، وربما لذلك هربت البنات والشباب، فلقد سمعت أكثر من زميل يشكو من انصراف أبنائه إلى مصايف أخرى للعائلة.. أطلقنا لقب "العجوز" على مصيفنا هذا، ومصيف "الوقت الضائع" لكنه

كان كالبلسم بالنسبة لي، في الصباح والبحـــر يســـتيقظ مـــن الظلام، ويشف لون مياهه، كنت أحس أنه قادم من عالم بعيد من أجلي أنا، أن أراه وأتملى باتساعه وأرتاح، وأنـــه إنمـــا يفرش لي مياهه ليجلو عيني ويريح صـــدري ويوســـع فـــي شرايين قلبي، وفي المساء كنت أشعر ساعة الغـــروب أننـــا جميعا، رجالاً ونساءً، ونحن نجلس هـــادئين علـــى المقاعـــد البلاستيك الناعمة البيضاء، أننا أبناء هذا البحر، وأنه أبونـــا الطيب الرحيم قد ذهب بالليل لينام! أفكار كثيرة جميلة كـــان ترد على ذهني، وقررت أن ألقي بالقطعة اللعينة في البحـــر ولا أعود إليها أبدًا، أجل، ما معنى إحليل التمساح، أصـــلاً، وهل هناك حقًا تماسيح تكفي كل هؤلاء السياح؟ لا بد أن في الأمر نوعًا من النصب، ولماذا لا يكون ما معي إحليل فرس النهر، أو وحيد القرن، أو حتى فيل، وكلها حيوانات موجودة في أفريقيا؟ لكني وجدت أني تركت هذه القطعة اللعينة فـــي البيت، وأخذتني الحمى العجيبة التي تدعوني لتحطـــيم هـــذه القطعة رغم أنني في غير حاجة إليهـــا، فتركـــت زوجتـــي وذهبت إلى البيت مسرعًا، دخلت إلى الدولاب الذي وضعتها فيه فوجدتها تنتظرني. بدت لـــي بأخاديـــدها مثـــل عجـــوز

يضحك، يهزأ بي، ربما يشجعني، لا أعرف بالضبط، ذهبت إلى الهون النحاسي القديم الذي ورثته عن أمي ووقفت في المطبخ ووضعت الهون فوق الرخامة وفيه وضعت القطعة ثم هويت عليها بيد الهون فارتدت اليد إلى أعلى وكادت تفلت من يدي، أعدت المحاولة بقوة، ثم بقوة أكثر، فانكسرت الرخامة وسقط الهون على الأرض فقفزت إلى الخلف حتى لا يصيب قدمي، وانتثرت يد الهون من يدي وحدثت ضجة وجلبه غريبة اختلط فيها صوت النحاس بصوت البلاط بصوت أشياء أخرى غير مفهومة، وتراجعت أنا إلى الوراء أفكر في أمر هذه الكارثة الجدية، وتملكني غيظ وتصميم فعدت وأمسكت بالقطعة ووضعتها على العتبة وأحضرت مطرقة قديمة ثقيلة أحتفظ بها عندي مما خلَّفه أبي، وكنت أعرف أن شعري منكوش، وأن عيني جاحظتان، وأن عروقي تنتفض ، وهويت بالمطرقة فقفزت القطعة من مكانها وتهشمت العتبة الرخامية، وخرجت أخت زوجتي تستطلع الأمر، رأت شكلي فاندهشت وخافت قلت لها "ادخلي" فدخلت ونسيت أنها يمكن أن تتصل بزوجتي أو زوجها فشكلي يدعو إلى الرعب لا شك، عدت أمسك بالقطعة اللعينة، ووضعتها

فوق البلاط وهويت عليها بالمطرقة فلم تتأثر، وتهشمت البلاطة التي تحتها، نقلتها إلى بلاطة أخرى فحدث الأمر نفسه، فتركت المطرقة ومددت كفي أرفع هشيم البلاط عن الأرض حتى بانت لي الرمال، ثم عدت مرة أخرى إلى الطرق على القطعة فوق البلاط، بكل قوتي التي حين انهدت كنت قد هشمت أكثر من متر مربع من البلاط، لكن القطعة اللعينة لم تتأثر.

جلست فوق الأرض محطمًا، خلعت قميصي، تركت العرق ينثال على جسمي دون أن أحاول تجفيفه، ولا بد أن وقتًا طويلاً قد مضى لأني رأيت زوجتي تقف أمامي مندهشة! كانت القطعة اللعينة قد انتثرت في ركن بعيد، وكنت أركز عليها بصري، كانت أخت زوجتي قد اتصلت بزوجتي التي راحت تنظر إليَّ ثم إلى القطعة البعيدة، ولما كانت أختها تقف جوارها تصنعت الضحك وقلت:

- سأنهض لأتفق مع محل سيراميك، فرصة أن يتم ذلك ونحن بالمصيف.

قمت وانحنيت بطريقة لا تلفت النظر إلى القطعة اللعينة وألتقطها لأخفيها في الدرج المسحور بالدولاب.

(٦)

قررت أن أنتهي من الأمر كله بإلقائها في البحر، لقد عادت لي الأزمة بعد أيام المصيف، لم أرتبك، صرت واثقًا في انفراج الأزمة بعد كل ضيق. لقد شغلت نفسي بموضوع عبثي، واستلفت لتركيب السيراميك. وقالت زوجتي بجد إن هذه القطعة العجيبة جلبت النحس إلى البيت! لقد جرحتني وطيرت سنتي وحطمت رخامة المطبخ وأرغمتني على الاستدانة، وتذكرت كلامًا قديمًا عن "العكوسات" التي قد يتسبب فيها شيء عارض.

أخذت طريقي إلى البحر، إلى المنطقة الخالية في شاطئ المكس بين الفنار وبائعي السمك حيث يأتي "العربجية" للاستحمام مع خيولهم، ضحكت وأنا أتخيل عددًا كبيرًا من ضابط الشرطة يقفون مثلي على شاطئ البحر يلقون بقطع لعينة من إحليل التمساح إلى الماء، فكرة مجنونة لا شك. وجدت على الشاطئ زحامًا من الناس والبوليس فارتكبت هل يتحقق الخيال؟ فكرت أن أتراجع، بسرعة أدركت أن هناك حادثة، فالمدنيون أكثر من البوليس، اقتربت وأنا أفكر أن

الأمر لن يزيد عن وجود غريق وربما طرد مخدرات قذفت به الأمواج، كان الساحل الشمالي زمان أشهر طرق التهريب للمخدرات، من يدري ربما لا يزال من داخل القرى السياحية المغلقة طوال الشتاء! يالها من فكرة تستحق أن أرفـــع بهـــا تقريري إلى الرؤساء، اقتربت، وجدت غريقًا قذفة المـــوج، صوت عربة الإسعاف كان يأتي من ورائي، ابتعدت كثيـــرًا حتى لا أسبب إرباكًا لرجال البوليس، لحظات وعاد الشاطئ إلى صفائه الشتوي. فراغ كبير وبياض سابغ ونسمة خريفية منعشة وليس في الماء من أحد، فقط أسراب النورس تـــأتي من الغرب ولا تصل أبدًا إلى الشرق، تندفع حقًا إلى الشـــرق لكنها سرعان ما تعود وتدخل في الـــدوائر المدهشـــة التـــي تصنعها بقية الطيور، لمحت جنديًا فوق الفنار، وسفينة بعيدة تغادر الإسكندرية، كانت الشمس حانية فوق كل هذا الفـــراغ وتأخذ طريقها إلى وسط السماء، لا أعرف لماذا فكرت فـــي لحظة أنني أنا سبب هذا الغريق، إنني مجرم يعود إلى مكان جريمته دون أن يعي أن ذلك سيكلفه حياته. إحليل التمساح!؟ يا له من حل مجنون يجعل المرء في صلابة الفـــولاذ؟ ألـــم يستعصي عليَّ حتى الآن تحطيم القطعة!؟ وماذا يحدث حقًـــا

لو تصلبت مثل القطعة؟ إن ذلك أمر مؤلم حقًا ويؤدي إلى كارثة محققة! ضحكت من الأمر كله، وسمعت صوتًا يناديني، يا إلهي، العميد فواز الذي خرج إلى التقاعد بعد أحداث الأمن المركزي في الثمانينات.

- كل هذه السنوات ولا تسأل عنا يا سيادة العقيد؟!

كان صاحب أفضال كثيرة عليَّ وبمثابة الأب الروحي لي

- يا باشا..

- لا تعتذر عن شيء، أعرف ظروف الشرطة الآن وظروف الحياة.

سكتنا لحظات حتى قال:

- اجلس.

ولم تكن هناك مقاعد فكاد يقول:

- اجلس على الأرض يا سيادة العقيد، لا أحد يرانا.

كان هو يرتدي بنطلونًا وقميصًا بكم فوقه بلوفر مفتوح الصدر، جلسنا.

قلت :

- كان هنا غريق منذ قليل.

قال:

- أعرف. كل يوم تقريبًا يطرد البحر غريقًا. كثيرًا ما يكون أحد بحارة السفن الأجانب، لقد ازداد الغرقى جدًا حتى ليبدو لي أن القراصنة قد عادوا إلى البحر!

ضحكنا وعدنا قليلا إلى الصمت ثم قال:

- لم تقل لي لماذا أتيت إلى هنا اليوم. بالنسبة لي آتي إلى هنا كثيرا خاصة في الخريف ؛لأنه كما تعرف ليس لدي شيء أفعله.

- أنا في الحقيقة أتيت إلى هنا صدفة، كنت أقود سيارتي فرأيت الزحام!

وفوجئت به يقول باسمًا:

- أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا.

ارتبكت، تذكرت أنه كان وهو في الخدمة، يعرف كل شيء تقريبًا عن الذين يعملون معه، كيف لم يستطع أحد أبدًا

أن يخدعه، خفت بحق أن يكون على علم بالقطعة اللعينة، لكن كيف بالله يستطيع أن يعرف؟...

وقال:

- أنت كنت في أسوان منذ شهور!
- كيف عرفت؟
- من الصحف، الصحف نشرت أخبارًا عن الدورة التدريبية ضد الإرهاب. لقد أدهشني هذا النشر .على أي حال الإرهابيون يعرفون أن الوزارة تدرب رجالها ضدهم حتى لو لم يتم النشر.
- أقصد كيف عرفت أني كنت هناك؟
- في الحقيقة رأيتك. كنت أقضي الشتاء عند أقارب لي هناك. رأيتك تشتري قطعة من... ثم رأيتك تركب السيارة قبل أن أناديك.

كان يضحك وضحكت معه، حقًا إنه لعالم صغير. قلت لنفسي، لكن ألم يكن أجمل لو رآني في موقف آخر.

- لا تخجل كلنا نذهب إلى أسوان من أجل ذلك، لكن أنت لا زلت صغيرًا وهذا يدهشني.
- أنا لم أشترها لنفسي، أوصاني بها أحد أصدقائي.

ابتسم ونظر إلى عيني، رأيت في عينيه أنه يعرف أني أكذب. عاد يضحك ويقول:

- أحد أصدقائي، لواء سابق أيضًا، اللواء الدراموني، هل نسيته؟
- لا أحد ينسى الدراموني، على الأقل بالنسبة إلى اسمه.
- الدراموني يذهب عادة إلى أسوان في الشتاء ويشتري ما يكفي لمدة عام. له قصة عجيبة الدراموني هذا. في أول مرة لم يعرف ماذا يفعل ولا كيف يهشم القطعة التي اشتراها، وضعها في الخلاط؛ احترق، وضعها على الأرض؛ فتهشم البلاط، حاول أن يقشرها بالسكين فقطع إصبعه، جاء هنا وألقى بها في البحر.

سكت فكرت في لحظة أنه قد يقصدني، لكني تـذكرت أنه كان دائما رجلاً واضحًا ومباشرًا، استبعدت الفكرة. قلت:

- لكنك تقول إنه يذهب كل شتاء ليشتري ما يكفي لعام.

- طبعا، لقد تعلم كيف يستخدمها، الحقيقة أنـا الـذي أخبرته.

ضحكت بشراسة وقلت:

- لقد صرت خبيرًا في ذلك إذن يا باشا.

- طبعًا.

- لكن .

سكت فقال:

- تريد أن تعرف الطريقة.

- أنا؟ لا.

- أنت تريد أن تعرف، حتى لو لم تكن تريد فسـتحتاج أن تعرف يومًا..

- إذن..

- الطريقة المثلى أن تبحث عن "بنان" يطحنها لك في مطحنة البن، أو نجار يربطها لك على "المنجلة" ويقوم ببردها بمبرد خشن ويتلقى البرادة على ورقة. هذه البرادة هي التي تستخدمها مع أي مشروب ساخن أو بارد..

أشرقت عيناي، كيف حقًا غاب عني ذلك، في أي بئر كان يختبئ هذا الرجل، راح يضحك من جديد ويتكلم:

- لقد فرح الدراموني جدًا حين عرف بهذه الطريقة، وسافر إلى أسوان واشترى كمية تكفي لعام، وذهب إلى بنان صديق ثم..

وعاد يضحك بشراسة هذه المرة ويسعل حتى كاد يموت..

- لقد وضع البنان كل القطع التي اشتراها الدراموني في المطحنة، ولأمر ما انشغل بالحديث في التليفزيون تاركًا واحدًا من صبيانه يدير المطحنة، لم يكن الصبي يدرك ماذا يحدث بالضبط، تصور أن ما

وضعه البنان نوع جديد من "التجويجة" فوضع فوقها "كيلة" من حبوب البن وطحن الجميع!

- واللواء الدراموني، ألم ينتبه؟

تساءلت وأنا أضحك معه.

قال:

- كان جالسًا على الكرسي يشرب القهوة، وسارحًا في الخيال عما سيفعله الليلة والليالي التالية، والنتيجة طبعا كانت اختلاط إحليل التمساح بأكثر من عشرة كيلو بن، لقد رأيت الدراموني ذلك اليوم، كان في حالة من السوء لا تقارن، كان يضحك ويشد شعره في الوقت نفسه.

قلت وأنا أغالب الضحك:

- كان يمكن أن يأخذ البن ويشربه.

- الدراموني لم يكن من هواة القهوة كما تعرف، قال لي هل يمكن أن أشرب القهوة في هذا العمر. أشرب عشرة كيلوات قهوة.

- حكاية عجيبة يا باشا حقًا.
- لقد باع البنان البن بأسعار خيالية، هكذا أخبرني الدراموني الذي رفض أن يأخذ أي تعويض.
- الدراموني كان رجلاً مستقيمًا تمامًا.
- لقد تحسنت أحوال الناس في المنطقة وقلت المشاكل الأسرية.
- والله حل معقول لمشاكل المجتمع يا أفندم.
- لكن طبعًا الدولة لا يمكن أن تلجأ لمثل هذا الحل..
- طبعًا. حل مجنون وحكاية مجنونة..

سكت قليلاً ثم قال:

- وأين هي الحكاية العاقلة هذه الأيام.

حامل كتاب السحر

ناس كثير كانت تمشي في الشارع لكن الحر، الذي بـــدا لي قد أفرغ الدنيا من الهواء جعلنـــي أرى النـــاس قليلـــين، متناثرين كيفما اتفق، بعضهم يقف يشرب البيبسي كولا فاتحًا قميصه كاشفًا صدره، وبعضهم يقف على باب سينما متـــرو، وباب سينما ميامي على الرصيف الآخر، منتظـــرًا موعـــد الدخول لحفلة السادسة والنصف، حريصًا أن يكون قريبًا من هواء مكيفات المداخل، الذي لا يبتعد كثيـــرًا عـــن البـــاب، والبعض يتسكع للفرجة على فاترينات الملابـــس الجـــاهزة، أكثر النساء كن يقفن أمام فترينات الملابس الرجالية، أكثـــر الرجال كانوا يقفون أمام فترينات الملابس النســـائية، هكـــذا رأيت، أو هكذا خُيِّل لي، فالحقيقة لا أذكرها تمامًا، ذلك أنـــه كانت بي رغبة أن أمشي مستديرًا، أي في دوائر حلزونيـــة، كما تدور الأرض حول الشمس، وأيضا كما يدور القمر حول

الأرض، بدت لي هذه الرغبة مفاجئة حقًا، تذكرت، مبتسمًا، أنها كانت عملاً من أعمال الحرب. نعم الحرب التي نسيها الناس بسرعة، أيام الحرب كنت أمشي هكذا، رغم أن الحرب كانت هناك، بعيدة، لا تلمني إذا لم أذكر مكانها بالضبط، فأنا يُخيَّل لي، كثيرًا ، أني أقف فوق الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، لذلك لا أعرف هل كانت الحرب في الشرق حقًا كما يقول الناس، أو في الغرب كما رأيت، أو كما خُيِّل لي، على أن ذلك ليس مهمًا الذي يدهشني هو نسيان الناس للحرب بهذه السرعة، ودليل نسيانهم أنهم يمشون في خطوط مستقيمة مهما توقفوا، ويعرفون ما يريدون، فهم يحملون، غالبًا، حقائب بلاستيكية بها أشياء اشتروها، أو أشياء يبيعونها، الوحيد الذي لم ينسَ إذن هو أنا، في الحرب الأولى كنت أمشي من اليمين إلى اليسار، في الحرب التي تلتها كنت أمشي أستدير من اليسار إلى اليمين، في الحرب الأخيرة كنت أمشي أستدير دورة كاملة من اليمين إلى اليسار، وأعود لأستدير من اليسار إلى اليمين، ربما لذلك ظللت واقفًا مرة في مكان واحد ثلاثة أيام، لكن في ذلك الوقت كان على وجوه الناس وجوم، لذلك لم يلتفتوا إليَّ لم يصفني أحد

بالجنون، اليوم أرى الناس مزدهرة الوجوه، خاصة الفتيـــات المرحات، والنساء الأكثر مرحًا؛ لذلك لا أستطيع أن أمشـــي مستديرًا، ويُخيَّل لي أني مرتبك من شيء آخر غير ذكـــرى الحرب، إنه وجه لم آلفه يقابلني من الأمام ولا يفارق وجهي، ويقابلني من الخلف أيضًا . آه إذن لقد استدرت دورة كاملــة وأنا لا أدري، لكنه يبدو مصابًا في جبهته، هناك خيط مــن الدم الثقيل ينزل بين العينين ويمشي على قصبة الأنف، لكني أرى نفسي جالسًا في سينما مظلمة أتفرج، وحيدًا، على فــيلم فيه شخص مجروح الجبهة، والحقيقة أني كنت أقــف أمــام فترينة محل ملابس جلدية، معظم الملابس جلد أسود، القليــل منها بني، الأحزمة مبرقشة، من جلد الثعابين، ثعابين البــر والبحر، اليابس والماء، وحافظات النقود كــذلك لكــن بــين الحافظات والأحزمة مناديل وشيلان بيضاء وفوقها خنــاجر مسنونة وحادة لها مقابض من الجلد أيضًــا مرســوم علــى بعضها علامة الحياة الفرعونية وعلى بعضها وجه نفرتيتــي والقليل منها بلا رسوم، وكلها تبدو ملساء لامعة مثل النصل نفسه، كانت هناك أيضًا خناجر أرفع تطل نصالها من جيوب السترات الجلدية السودءا والبنية معًا، المعلقة حول التماثيــل

باهتة الابتسامة شمعية الوجوة عمياء العيون رغم الرموش الطويلة للنساء، فكرت ربما ما أراه من خناجر وجلد هو سبب ما رأيت، أو خُيِّل لي، من دم ينبثق من جبهة الوجه الذي يحاصرني من الأمام والخلف ولم يسبق لي أن رأيته أو صاحبه، لكني وأنا ألتفت لأعاود المشي رأيته حقيقة، أجل ولم يُخيَّل لي، مد يده إليَّ فمددت يدي وهزها بعنف وشد عليها بقوة مبتهجًا للغاية.

- أتذكرني يا أستاذ؟
- لاتؤاخذني..
- ليس مهمًا. إنني سعيد جدًا برؤيتك.
- أشكرك جدا.
- ألا تذكرني حقيقة يا أستاذ؟

ولم يعد لائقًا أن أظل أقول الحقيقة.

- يُخيَّل لي أن رأيتك من قبل، سامحنى إذا كنت نسيت.
- غير معقول أن تنساني يا أستاذ، إنني أحبك جدًا، بالله تأتي معي تشرب الشاي.

والتفت حوله، لا بد أنه أدرك أننا في منتصف الشارع، لا مقهى إلا في أول الشارع من ناحية ميدان طلعت حـــرب، مقهى ريش الشهير، أو مقهي الأمريكيين في نهاية الشـــارع عند التقائه بشارع فؤاد .قلت:

- أشكرك جدًا. الآن تذكرت أني رأيتك كثيرًا من قبل، كيف حالك؟ الحقيقة أني كنت أكذب، لا أعرف كيف اندفعت هكذا في الكذب، لكنه بدا لي شديد الطفوليـــة والعذوبة وهو يقول:

- إنني سعيد يا أستاذ أنك تذكرتني، أنا ما زلت أكتب، تصور!؟

إذن هو كاتب عرض عليَّ شيئًا من إنتاجه القصصي أو الشعري يومًا. تنفست مرتاحًا ،قلت:

- رائع، رائع جدًا.

نظر إليَّ فجأة متسع العينين، لقد بدا مندهشاً من كلامي غير مصدق ما أقوله.

- لماذا يكون ذلك رائعًا يا أستاذ؟

ارتبكت بحق، ولأني لمحت كتابًا قديمًا في يده فكرت أسأله عنه، لكن قبل أن أسأله قال لي وهو يقرب الكتاب مني:

- هذا كتاب سحر.

- سحر؟

- أجل، انظر.

وقدم الكتاب إليَّ، فتحته فوجدت به دوائر ومربعاتٍ ورموزًا فرعونية وحروفًا صينية ورسومًا لحيوانات معروفة وغيرها غير معروف وكتابة بالعربية والإنجليزية وزحام شديد، وأحببت الابتعاد عن الموضوع فقلت:

- لكن حقًا كيف رأيتني؟

عاد مبتهجًا من جديد وقال:

- أنا كنت أمشي معك من أول الشارع.

- حقًا؟ لماذا لم تكلمني إذن؟

- كنت أمشي على الرصيف الثاني ، وكنت أنت كلما وقفت وقفت أنا وكلما مشيت مشيت أنا، حتى عندما

رأيتك تستدير وجدت نفسي أستدير، أحسست أنني مربوط بك يا أستاذ، كان شيئًا جميلاً بحق ، هل كنت تحس بي يا أستاذ؟

سألني وهو في سعادة طفل وزهوه، قلت فاتحًا له قلبي متأثرًا بحق:

- نعم .كنت أحس بك.
- يقولون إن الأشعة تنتقل من العيون إلى الأجسام مهما كانت المسافة بعيدة. وأنا كنت دائم النظر إليك لابد كنت تحس بي يا أستاذ..

لا أكذب إذا قلت إنه شملني إحساس الأم، الأم بالذات، حين تفرح بابنها العائد من غربة، أو حرب، ذلك الإحساس الذي يعطيها سببًا حقيقيًا للبقاء في الحياة.. قلت:

- كنت أحس بك من أول الشارع وأنتظر عبورك.
- أشكرك يا أستاذ .إن هذا الكتاب مهم جدًا لي الآن، الدنيا أصبحت صعبة جدًا يا أستاذ، ليتني أراك مرة أخرى.
- لا بد أنك ستراني.

- هل تمشي هنا كثيرًا يا أستاذ؟
- في شارع سليمان؟
- أجل .
- أمشي كثيرًا جدًا.
- إذن سنلتقي كثيرًا يا أستاذ أنا أيضًا أمشي هنا كثيـــرًا تصور إنني أحب هذا الشارع جدًا.
- أنا أيضًا أحبه جدًا..
- إذن إلى اللقاء يا أستاذ.

وصافحني بشدة. هزَّ ذراعي بقوة.. تركني وأخذ طريق العودة في اتجاه شارع فؤاد، كانت ســينما متــرو تخــرج جمهورها، وكذلك سينما ميامي، ولم تعد لي فرصة أن أراه، تبخر كأنما حملته غيمة في فضاء..

الطريق إلى العشاء

لنقف. قال ذلك وتوقف بالسيارة؛ ولأني غريب لم أعلق
، هو أيضًا صاحب الدعوة إلى العشاء:

كان الوقت غروبًا، وبقايا أشعة واهنة لا زالت تتيح لنا الرؤية، والمصابيح لم توقد على جانبي الطريق الـــذي كـــان قصيرًا، فطوله لا يتجاوز مائتي المتر، لكنه كان واسعًا يزيد عرضه عن ثلاثين مترًا.

كان طريقًا مسفلتًا بسلامة بحيث لا تلمح فيـــه ارتفاعًـــا
أو انخفاضًا ، لكنه كان قديمًا حال سواده إلى الرمادي القاتم فلا تلمح فيه انعكاسًا لأي ضوء.. وكانت هناك فـــي بدايتـــه القريبة منا علامات عبور المشاة البيضاء التـــي تمتـــد بـــين الرصيفين، وعلى جانبي الطريق بيوت منخفضـــة محاطـــة بحدائق، لكنها بيوت مغلقة النوافذ في الغالب، والمفتوح منها لا يطل منه وجه أحد. قلت:

- سمح لي أن أحسد سكان هذا الشـــارع علـــى هـــذا الهدوء.

ابتسم وقال:

- لا يوجد هنا ســكان، معظـــم هـــذه البيـــوت ورش صغيرة.

- عجيب.

هتفت هكذا على طريقة أهل هذه البلدة التي زرتها مـــن قبل منذ ثلاث سنوات، وقال هو:

- الأعجب أن مسئول الحي قرر سد هذا الشارع مـــن الناحية المقابلة. ومنع مرور أي سيارات أو مركبات فيه .

ضحكت وقلت:

- ربما ليوفر الراحة لأصحاب الورش والعمال.

قال:

- هذا ما حدث، لكن لماذا نسيت حكاية هذا الشارع؟

باغتني بالسؤال، وكان يضحك ويهتز صدره، وكنا نزلنا من السيارة، ووقفنا فوق أول الرصيف القريب عند علامات المشاة البيضاء، وعاد يسألني..

- ألم أحدثك عنه في خطاباتي؟

وقفت مندهشًا أحاول أن أتذكر.

- هل تنسى بهذه السرعة؟ لقد كتبت لك أيضًا عن ذلك في خطابي الأخير.

قلت حدثتني لقد تذكرت. لكن..

- انظر قليلاً إلى حركة الناس وستتأكد مما كتبته لك.

ورحت أنظر إلى شابين يأتيان من نهاية الشارع يمشيان على الرصيف المقابل لنا حتى إذا وصلا إلى نهايته أمامنا عبرا الشارع فوق علامات عبور المشاة ووصلا إلينا ثم تجاوزانا دون أن يلقيا بسلام.

- أرأيت؟

سألني صديقي من جديد، وكنت أنا لا زلت أتابع النظر إلى القادمين من عند نهاية الشارع، أو الخارجين إليه من

أزقة جانبية بين البيوت الهادئة كانوا كثيرين يمشــون علــى الرصيف الذي نقف فوقه أو على الرصيف المقابل لنا حتــى إذا وصلوا إلى نهاية الرصيفين من ناحيتنــا عبــروا فــوق خطوط المشاة البيضاء وواصلوا مشيهم بعيدًا عنا، قلت مرة أخرى:

- عجيب!

والحقيقة أنني حتى هذا الوقت لم أكن أفهــم أي معنــى لأي شيء يحدث أمامي، لكنه هكذا قلت مدعيًا الدهشة حتــى يتأكد أني لا زلت أذكر ما كتبه لي في رسالته، والحقيقة أني لا أذكر منه أي شيء، ربما قلت ذلك أيضًا خلاصًا من الأمر كله حتى نلحق بالعشاء، لكني رأيته يضحك ويهتز ثم قال:

- ها هي مجموعة تأتي من خلفنا تابعها.

كان عدد منها يعبر خطوط المشاة إلى الرصيف الآخر، وعدد استمر يمشي فوق الرصيف الذي نقف عليه، قال:

- سترى أن هؤلاء أيضًا لن يعبروا الطريــق مــن أي نقطة إلا عند النهاية.

- لماذا؟

نظر لي بدهشة غير المصدق وقال:

- لأنه عند النهاية توجد خطوط عبور المشاة.

قلت حتى أخلصه من أي فكرة تكون قفزت إلى ذهنه عنى ككاذب أو مستخف بالمسألة:

- لكن الشارع مسدود عند نهايته.

- لقد وضعوا الأحجار بعد خطوط عبور المشاة القديمة، هناك في النهاية زقاقان يدخل إليهما أو يأتي منهما الناس.

تابعت النظر إلى الذين يمشون فوق رصيفنا باعتبار أن الذين عبروا من أمامنا إلى الرصيف الآخر لا يمكن أن يعودوا ويعبروا الشارع مرة أخرى.

ورأيتهم حين بلغوا نهاية الشارع يعبرونه فوق خطوط عبور المشاة، ولا أعرف لماذا نظرت إلى الرصيف الآخر. رأيت واحدًا سبق له العبور من أمامنا يقف ثم يلتفت ليمشي بضع خطوات على نفس الرصيف ثم يعود ويعبر فوق الخطوط إلى رصيفنا ويختفي في الزقاق الذي حدثني عنه صديقي..

أغمضت عينيَّ غير مصدق، ثم فتحتهما، وتذكرت كـل ما كتبه لي وسمعته يسألني:

- ها ،تريد أن تظل واقفًا؟

سألته:

- منذ متى صدر قرار مسئول الحي؟
- منذ عام.
- عام كامل.
- عام كامل ولا أحد يريد أن يصدق أن هذا الشارع لا تمشي فيه المركبات، كل أنواع المركبات يا أخي، لا أحد يريد أن يصدق أن الشارع بعد قـرار مسـئول الحي كله للمشاة يمكن أن يلعب فيه النـاس أيضًـا. انظر، حتى النساء، حتى الأطفال، لا يصدقون..

كانت هناك مجموعات تمشي على الرصيفين بينها نساء وحولها وأمامها أطفال، ولم أشأ أنتظر لأرى فمشيت ومشـي خطوتين فقط وتوقفت وقلت:

- انتظر قليلاً.

- إيه لا تريد أن تلحق بالعشاء؟

- ما رأيك لو مشينا أنا وأنت في الشارع؟

لصديقي هذا وجه يحمل عينين مندهشتين دائمًا، لكن شاربه الكث يعطيه بعض جهامة إلا أن فيه روحًا طفولية تنبثق فجأة إذا أعجبته فكرة ما، وحين تنبثق هذه الروح الطفولية تتسع مساحة الوجه للدهشة وتتراجع الجهامة المكتسبة بالشارب، وهو الآن يصفق طربًا ويشيع في وجهه الفرح ويقول كأنه داخل إلى معركة حربية:

- هيا ، تقدم وسأتبعك.

وتقدمت أنزل الرصيف إلى أرض الشارع .كانت المصابيح قد أضيئت فبانت لي الأرض الرمادية كالحة تماماً، مشيناً وسط الشارع، وحاولنا أن لا ننظر مباشرة إلى الناس فوق الرصيفين، مشينا ببطء، وإمعاناً في أن نبدو متسكعين حقيقيين رحنا نقترب ونبتعد من بعضنا كأننا لا يشغلنا شيء ولا وقت. لكني كنت ألاحظ ازدياد أعداد الناس على الرصيفين، رجال ونساء وأطفال حقيقيون لا أعرف فيما يفكرون بالضبط لكن أحس بنظراتهم إلينا.أحسها تخترق

جسمي.وحين وصلنا إلى نهاية الشارع عدنا نقطعـه بـنفس الطريقة إلى أوله، والناس تتغير، تظهر منهم جماعات جديدة توالي النظر إلينا ويزداد إحساسي بنظراتهم وهـي تختـرق جسمي، لكن أيضًا بدأت أفهم شيئًا من خلال نظراتهم، غـيظ ودهشة ممزوجة بغضب وسخرية، وحين وصـلنا إلـى أول الشارع عدنا من جديد، حتى إذا ما وصلنا إلـى منتصـفه، وبدأنا ندرك أنه لم يشاركنا أحد فـي النـزول مـن فـوق الرصيف ولو خطوة واحدة، رأيت الناس ينصـرفون عنـا بنظراتهم، لكن تزداد سرعتهم قليلاً، وخُيِّل إليَّ وربما كـان ذلك حقيقة، أني رأيت بعضهم يجري، وتوقفنا، ولا أعـرف هل توقف صديقي لأني توقفت أم توقفنا معًـا فـي لحظـة واحدة، الحقيقة أنني توقفت ؛لأني أدركت أننا منذ نزلنا إلـى الشارع توقفنا عن الكلام! كانت ثلاثة أعوام قد مـرت منـذ زرت هذا البلد أول مرة، وبالطبع كانت هذه أول مـرة أراه بعد لقائنا البعيد ، ولا أظن أن الإنسان يحتاج لأكثر من ثلاثة أعوام حتى يجد شيئًا يقوله، لكن هذا مـا حـدث، ورأيـت صديقي يرتعش قليلاً وترتعش أصابعه وهو يخرج من جيب قميصه علبة سجائره وولاعة مذهبة، ورأيت ازدياد ارتعاش

أصابعه وهو يقدم لي سيجارة، وارتعاش أصابعي وأنا آخذها، وقال بصوت خفيض:

- يا أخي أشعر كأني لا أرى أحدًا فوق الرصيفين.

كان ذلك يحدث لي أيضًا، لكني كنت غير قادر على الكلام ،وسمعته يقول بصوت مخنوق:

- ألا زالت القمة بعيدة؟

كان يعني قمة الجبل الذي نصعده، وكان يخاف مثلي السقوط إلى السفح العميق. هكذا كان إحساسنا ونحن نعاود المشي بحثًا عن الرصيف الجميل..

١٩٩١

صائد المجانين

لماذا يكثر ظهور المجاذيب في المدينة صيفًا؟ لا يكفي صفاء الجو سببًا لذلك، الوقت الآن ليس صيفًا، لكنه توقع ظهور أحدهم، وكالعادة ظهر بعد توقعه بثوانٍ، ورأه يأخذ طريقه إليه وهو واقف تحت المظلة. لقد نمت لديه حاسة غريبة تنبئه بظهرو المجاذيب فيظهرون، ولقد جرب أن ينتبه لذلك الحدس المفاجئ الذي يتمدد في صدره مباغتة معلنًا ظهور مجذوب ووجده دائمًا صادقًا ،وحين جرَّب أن يعلن لنفسه، بإرادته، ظهور المجذوب، خاب ظنه يغافله الإحساس دائمًا في البداية، ولا يشعر إلا بعد أن يكون قد ملأ الصدر بقلق مجهول المصدر ، وملأ الفكر بحيرة مباغتة، ثم يراه أمام عينيه، الحدس نفسه يضيء، معلنًا ظهور المجذوب الذي ما يلبث أن يظهر، بعد ذلك يتجه المجذوب إليه، إنه لا يحدس ذلك، إنه يعرفه معرفة يقينية من زمان!!

يبتسم في كل مرة يرى فيها مجذوبًا يتجه نحـوه حتـى يبدو أن المجذوب قد انحرف عنه، يظهر في النهايـة أنـه، المجذوب، اختار قوس دائرة كبير ينتهي إليه.

كانت البداية في طفولته، حين كان أبوه يصحبه معه في مشاويره، لا ينسى كيف كان أبـوه يقـف علـى محطـات الأوتوبيس أو الترام أو القطار شاردًا دائمًا، كان يمكن له أن ينساه، ولقد حدث أكثر من مرة أن تحرك الأب ولحق هو به بعد أن صرخ يناديه فانتبه الأب وتوقف. يمسـك الأب بعـد ذلك بيده الصغيرة ولا يتركه إلا في البيت.

لا يذكر أول مرة رأى فيها مجذوبًا، فقط يـذكر أنهـم كانوا كثيرين في شوارع المدينة، في الصيف والشتاء وسائر الفصول، ويذكر أنه لم يجد مرة اختلافًا في نظراتهم السعيدة، ولا في قدمي أحد منهم حذاء، ولم يحدث أن رأى أحدهم في جلباب نظيف، دائما هم منكوشو الشـعر، لـم يـر جنـازة لمجذوب ذي شعر أبيض، لعلهم يموتون مبكرين، لـم يـر جنازة لمجذوب أصلاً. يسمع أنهم يموتـون فـي حـوادث الطرق، أو غرقًا في البحر والترع.

على أي حال لقد تشابهوا في كل شيء إلا طول ذقونهم، الجميع يتركونها ، لكن هناك من كان حليق الذقن دائمًا، وظل هذا يحيره، تمامًا كما حيرته في البداية عيونهم التي هي غالبًا حمراء كعيون القطط في الظلام.

عندما تقدم أول مجذوب نحوه جفل وتراجع بسرعة ممسكا بساق أبيه "لا تخف هذا مبروك" ولم ينس تعليق أبيه أبدا. رأى أباه يخرج من جيبه قطعة معدنية، لا بد أنها كانت قرش صاغ، ويعطيها للمجذوب الذي راح يضغط عليها بأسنانه، ثم يبتسم لأبيه، ومشى مستمرًا في الضغط عليها بالأسنان حتى ظنه سيأكلها.

لم ينس كلمة «"مبروك" عن المجاذيب لكنه ظل خائفًا منهم، في الثامنة، هكذا تقول أمه دائمًا، كان قد خرج معها في صحبة جدته القادمة من الريف، حين قابلهم أحد مجاذيب المدينة جفل وخاف وأمسك بجلباب أمه، لكن جدته قالت "لا تخف إنه مبروك" تمامًا كما قال أبوه من قبل، لكنها فعلت ما لم يفعل الأب، أمسكت بيد المجذوب ومشت بها على رأسه هو، كان المجذوب يضحك بصوت هادئ ممتد،

وانطلق يمشي مبتهجًا يقفز في الفراغ، بينما كان هو يرتعش ويقاوم البكاء.

لماذا فعلت جدته ذلك به؟! لنقل البركة من المجذوب إليه هكذا سمعها تقول، لتضمن له عمرًا أطول، لكنه نادرًا ما يتذكر ذلك وبالقطع هو يدرك الآن أنه لا معنى لذلك أيضًا لكن هل يكون ما فعلته جدته هو سبب اتجاه المجاذيب إليه كلما مروا من أمامه في أي مكان وأي وقت في المدينة؟ عادة يقترب البهلول منه يتأمله بدقة، ثم يمضي، يبدو كمن كان يتعرف عليه، واطمأن أنه هو ما يبحث عنه ، اطمأن على وجوده؛ لذلك يمضي سعيدًا رافضًا أي نقود يقدمها هو بدوره إليه، يحدث ذلك حين يكون وحده واقفًا أو ماشيًا في طريقه، أو حين يكون بين أصحابه في المقهى أو في نزهة أو في أي مكان، لقد كان يظن أن ذلك مرتبط بمدينته فقط، لكنه حين انتقل إلى القاهرة التي رأى مجاذيبها أكثر، ظل الحال كما هو لم يتبدل، يحدس ظهور المجنون؛ فيظهر ويتجه إليه يصافحه أو يبتسم له بعد تفحصه، لماذا يزداد المجاذيب في القاهرة، ربما لكثرة مساجدها والأصح أنها محاصرة بالريف، من الشمال والجنوب، ومن الريف يأتي

أكثر المجاذيب إلى المدن، أجل، هؤلاء المجاذيب ليسوا أبناء المدينة، إنهم غفل تمامًا، إنهم أهل الريف في حالة غير مكتملة ، لقد صار خبيرًا في أنواع المجايب هكذا يُخيَّل إليه لكنه ظل دائمًا مهتمًا بأن يعرف لاقتراب المجاذيب منه سببًا آخر غير ما فعلته جدته، أجل، لا بد من وجود سبب مقنع هل يكون لديه استعداد خفي للجنون يراه هؤلاء البهاليل؟

قال ذلك لأصحابه أكثر من مرة وهو يضحك، لكنه حين ينفرد بنفسه، خصوصًا بعد أن ينتصف الليل، في اللحظات المتفردة من الصمت الجليل الذي يغشى الدنيا، كان يشعر بشيء من الصحة فيما يقوله لأصحابه من أنه كثيرًا ما رأى نفسه يمشي أمامه مجذوبًا!.. أو نائمًا فوق سطح البيت، تمامًا كما فعل السيد البدوي ، زاهداً في الطعام والشراب، ولا يكف عن الصياح حتى مات! لكنه لم يكن يحب أن يصدق ذلك . إنه يميل إلى تفسير حماته حين حدثتها ابنتها عن ظاهرة اجتذاب المجاذيب إليه، قالت حماته: إن في وجهه ألفة وطيبة، لكن الابنة، وزوجته الآن، قالت إن أمها لا تريد أن تقول صراحة إن في عينيه بريقًا جذابًا لا يختلف عن البريق الذي في عيني المجانين، إنه لا ينسى كيف نهرت

حماته ابنتها – زوجته الآن حيث يجب أن يؤكد ذلك لنفسه دائمًا – بعنف وجدية وأمرتها ألا تعود لمثل هذا القول. لكنه حين عاد إلى البيت، ولم يكن قد تزوج بعد تلك الليلة التي دار فيها هذا الحديث، جعل ينظر في المرآة التي ينظر فيها كل يوم، لم يجد أي علامة على الجنون، لكنه لم ينقطع عن النظر إلى المرآة بين وقت وآخر، ومن المؤكد أنه كان يفعل ذلك لوقت طويل في مساء كل يوم يقابل فيه مجذوبًا في الصباح، ومرة بعد مرة لاحظ حزنًا شفيفًا ينمو على وجهه، وفي قلب عينيه، حزن جميل يدفع برقة بالدموع إلى عينيه بلا سبب، وتذكر بقوة اليوم الذي قربته فيه جدته من المجذوب، كان يتذكر كلام أمه عن ذلك اليوم، لكنه الآن تذكر الحادث نفسه، رآه رأي العين حقًا، أحس بيد المجذوب، وهرير ضحكه! وأسنانه غير المنتظمة، ورآه يقفز في فراغ الشارع، كان الوقت مساء المصابيح الكهربائية تلقي بضوئها الأصفر على جلباب المجذوب القاتم، إنه يرى الآن حتى تشقق كعبي قدمي ذلك المجذوب، وأمسك بنفسه أكثر من مرة متلبسًا بالرغبة في أن يسافر إلى مقام السيد البدوي، وأمام ضريحه إذا سافر بالفعل ، فكر كيف – حقًا – استطاع

المرور من بين كل أولئك المجاذيب الذي قابلهم في الطريق منذ نزل من القطار إلى المحطة ، خُيِّل إليه أن مدينة طنطـــا هي مركز مجانين العالم، وأنها هي التي تقذف المدن الأخرى بالمجانين وفكر أن يتحرى هذه الحقيقة بأن يسافر إلى مدينة "دسوق" ويقارن بين مجانين سيدي إبراهيم ومجانين الســـيد البدوي، ويرحل إلى وجه قبلي، إلى قنا وسيدي عبد الـــرحيم القناوي وإلى أسوان وسيدي الشاذلي، وإلى كل بقعة فيها ولي له أتباع ومحبون عقلاء ومجانين، ولما بدأ يصعد إلى سطح البيت في أوقات متفرقة تساءل: هل الجنون مرض معدٍ؟ لـــم يحدث من قبل أن صعد إلى سطح العمارة التي يسكنها، حتى إيريال التليفزيون الخارجي لم يشـــتره، اســـتخدم الايريـــال الداخلي الصغير الأنيق، واكتفى من التليفزيون بقناة واحـــدة تمنى أن تختفي بدورها، لم يسمع من قبل عن مجنون أصاب عاقلاً بالعدوى، عليه إذن أن يحذر، لا يترك قدميه تســـوقانه إلى السطح فذلك في ما يبدو تحقيق لرغبته المكبوتة أن ينهي حياته على طريقة السيد البدوي ، وأن يكف عن الذهاب إلى موالد الأولياء، أن يستمع إلى كلام زوجته التي يراها تتـــألم من أجله، الآن تحذره ، تقول له إنها كثيرًا ما تسمعه يبكـــي

بالليل، إنها تستيقظ فزعة على صوته، يندهش مــن كلامهــا عن ارتفاع الصوت، يقول لها إنه يفعل ذلك بصوت لا يكــاد يسمعه أحد، تسأله لماذا يفعل؟ يقول إنـــه لا يعــرف ســببًا محددًا، لا يعرف ما الذي يوقظه وما الذي يدفعه للبكاء، تقول إنه لا يليق به أن يبكي من الأصل وهو بــدوره يــدرك أن كلامها صحيح، لكنه لا يستطيع أن يحدثها عن تلك الأيــدي البيضاء المنيرة التي تأتي من الفضاء تربــت علــى كتفــه وتمضي ، وهو يكاد يرتفع عن الأرض رغبة في اللحاق بها لكن العجز يصيبه فينظر حوله ساكنًا فلا يــرى الا الضــوء الذي صاحب الأيدي الكريمة وهو يزداد شدة فوق مدينة تنام. إن شدة الضوء تصل إلى الدرجة التي تحمله إلى التلاشــي، إلى العدم ذاته إلى منطقة أشبه بمناطق انعدام الوزن، نــوع من الأثير الذي يلحق به الإنسان في فترة نقاهة من مــرض، أثير مشبع بالفرح الطفولي يدخله خفيفًا ويعود منــه خفيفًــا فيتسلل من الغرفة إلى الصالة حيث المرآة الكبيرة المثبتة في الحائط ويضيء النور بعد أن يحكم إغلاق باب غرفة النــوم على زوجته، وباب غرفة نوم ولديه، فلا يصل إلى أي منهم ضوء يمكن أن يوقظه، يشرع في النظر إلى المرآة، يــدرك

أنه لم يضيء النور وجده في الأغلب مضاءً من مصدر غير مرئي يقفز في فراغ الصالة يكاد رأسه يصطدم بالسقف، يزداد خفة ويشرع في البكاء وهو يشعر بجسده يشف ويرق ليصير خيطًا في فضاء نسيم.. ترى هل هكذا يكون البهاليل، هل الخفة من مظاهر العته. يا للسعادة التي تشع في روحه وجسده؟! هل قال ذلك؟ إنه لا يشعر إلا بأنه روح خالص.

حدثته زوجته عن ذلك الرجيم القاسي الذي فرضه على نفسه، لم يفعل ذلك حقًا ، فقط صارت نفسه تعاف الطعام، إنك تفقد الكثير من وزنك في وقت قياسي وهذا خطر هكذا تقول زوجته وهو يزداد سعادة يومًا بعد يوم، ويتمدد فيه حنين إلى شيء مجهول.

الحنين، الحنين، ذلك الضوء السحري الذي يسري في أجساد الشيوخ، بات يشتعل في جسده هو الذي لم يصل إلى الأربعين بعد، لكن إلى أي شيء يحمله الحنين، لا يدري بالضبط لقد صار مبتسمًا طول الوقت. فرحان باللقاء مع اللاشيء عيناه الآن لا تنزلان عن الأرض، يراه الناس في الشوارع يوقف المجانين وينظر في عيونهم ويضحك يتملى عيونهم لوقت طويل ثم يمضي ضاحكًا ومسرعًا ومبتعدًا.

لم يعد ينتظر المجذوب حتى يقترب منه كما كان يحدث في الماضي، هو الذي يتقدم نحو المجذوب يتأمل عينيه لـبعض الوقت ثم يتركه ويجري بعيـدًا وهـو حقًـا الـذي يوقـف المجذوب، وهو حقًا الذي يبدأ في النظر إليـه. هكـذا يـراه الناس، لكنه يشعر فجأة بنظرات المجـذوب وكأنمـا هـو، المجذوب الذي يبدؤه بالنظر فيفر من أمامه! احمرت عينـاه هو أيضًا وبللها الندى المترقرق، لم يكن ذلك أبدًا من غبـار الخماسينْ التي بدأت تهب على المدينـة، ولا حزنًـا علـى زوجته وولديه الذين بحثوا عنه في شوارع المدينـة وكلمـا عثروا عليه هرب من أمامهم واختفى كـان دائمًـا بعـد أن يختفي ، يقف لحظات متألمًا، يتذكرهم بلا شك، صورة غائمة قديمة لزوجة لا تكف عن الضحك والطفلين لا يكفـان عـن المرح، لكن لا يقين الآن، تهب الريح فيمشي في مواجهتها، لا تنتهي ولا يكف عن المشي في مواجهتها يريـد أن يجـد منفذًا ينفذ منه إلى مصدر الريح، دائمًا تواجهه المباني تسـد الطرقات ، لكنه وجد أخيرًا طريقًا يخرجه من المدينـة إلـى الفضاء الواسع، ترامت أمامه الصحراء ورأى بعينيه دوامات

الغبار الخماسينية، ترقص بلا نهاية فراح يرقص هو أيضًا طربًا ويجري آخذًا طريقه وسط الرمال.

١٩٩٥

تمارين على الأحلام

حاولت، بصدق، العودة إلى الأحلام فور صعودي إلـــى الترام، بدا الأمر نوعًا من الارتباط الشرطي رغــم مــرور عشر سنوات لم أركب فيها أي مركبـــة مـــن المواصــــلات العامة، وكالعادة ما كاد الترام يتحرك حتى كان قــد اكـــتظ بالركاب إلى درجة لا تسمح لأحد بالحركة إلا فـــي الحلـــم ، هكذا كنت أفكر قديمًا، وهكذا أفكر الآن.

لم أشأ النظر إلى وجوه الناس، فرجـــل مثلـــي يعـــرف التدهور الشديد الذي لحق بالحياة لم يكن ليتوقع جديـــدًا فـــي وجوه ركاب المواصلات العامة، ولم أنجح في استدعاء حلم، أي حلم.

مرت مسافة محطة كاملة مشبعة بالعرق والاختناق، ولم أمسك بحلم واحد، حاولت خلال مسافة المحطة التاليـــة ولـــم أنجح، تذكرت فقط أنني في صباي فكرت مرة أن أحفر ثقبًـــا في الأرض، وأستمر في حفره حتى أنفذ من الجانب الآخـــر للأرض بالقرب من أمريكا أو اليابان أو في قلـــب المحـــيط الباسيفيكي، وتذكرت أنني قرأت بعد ذلك عن برتراند راسل وكيف حدث أن فكر في صباه في فكرتي نفسها، تضــــايقت طبعًا ذلك اليوم ؛لأن راسل صار عالمًـــا وفيلســـوفًا، وأنـــا

صرت مدرسًا بسيطًا، رغم أننا فكرنا في شيء واحد في سن واحد تقريبًا.

- لا تحزن.

فتحت عينيَّ على اتساعهما دهشة، سمعت صوتًا حقيقيًا يقول لي ذلك الرجل القصير الذي يكاد رأسه ينطحن بين صدري وظهر الرجل الذي أمامي يرفع عينيه إليَّ ويبتسم ، إنه أصلع، لا يمكن أن يكون هو تذكرت أشياء شخصية ولم أفه بكلمه واحدة، لا بد أن صوتًا صادرًا من أعماقي يواسيني، ولا يجب أن أشغل نفسي عن محاولة الإمساك بحلم ولو قديم.

مرت مسافة محطة ثالثة، مسافة طويلة بطيئة، ولم أنجح ، الأحلام عادة إذا انقطعت لا تعود.. هكذا فكرت يائسًا أنا الذي بلغت قدرتي قديمًا على الأحلام أني كنت أحدد لنفسي الحلم الذي سأحلمه، ولم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من تمرين على التركيز في أمر ما، أو فكرة معينة، كان أصدقائي لا يصدقون ذلك قط، ولم أهتم بأن يصدقوني، كنت أكتفي بما أفعل، وأعرف أن أحدًا لن يصدق أحلامي إلا إذا شاركني فيها، وقررت في النهاية أن أحلم بأصدقائي، ولم

أستطع أن أحدثهم بذلك، كانوا قد استشهدوا في حروب كثيرة، أو سافروا إلى كندا وأستراليا ودول الخليج حتى صرت في الحي القديم بلا أصدقاء غير أبي وأمي، وحين انتقلت للعمل بالقاهرة تركت أبي وأمي في الإسكندرية، هل يكون انتقالي إلى مدينة جديدة سببًا في ضعف قدرتي على الأحلام؟ المؤكد أن للسيارة الخاصة التي أملكها، والتي تعطلت اليوم، شأنًا في ذلك!.

- لا تحزن..

الصوت نفسه يعود لأسمعه، تكلم هذه المرة بسرعة أكبر، لقد استطاع الرجل القصير أن يدفع نحوي وجهه كله، عرق كثير يتقصد على صلعته ووجهه، وهو يبتسم لي ابتسامة واسعة ولا يتكلم، لا يجب أن أريك روحي، الترام يزدادا ازدحامًا، وبطئًا ، وأنا الذي ضاعت قدرته على الأحلام، أستطيع أن أتذكر، الذكريات أحلام ضائعة تستطيع أن ترفعني عن الزحام وتنزل بي في محطتي عبر الأثير المخملي بهدوء وسلام.

تذكرت صديقي الوحيد الذي لا تزال ملامحة باقية، ذلك الذي لم يصبح شاعرًا كبيرًا كما كان يود أن يكون، ولم

يصبح شاعرًا من أي نوع، جاءني مرة متعبًا يشكو عناءه مع أبيه المسن الذي فتحت عليه الشيخوخة نوافـذها وأبوابهـا، وكيف يجب نقله مرة كل يوم إلى المستشفى؛ لتلقي العلاج ثم العودة إلى البيت في محاولة يائسة لتأجيل الموت المؤكد. ثم سكت طويلاً وقال إن الإنسانية كانت ستكسب كثيرًا لو جعلت منذ بدايتها القبلة وليس الجماع وسيلة للإنجاب، لو كان ذلـك قد حدث لتعدلت أمور كثيرة، أقلها أنـه لـن تكـون هنـاك ضرورة للثياب، الداخلية على الأقل، آخر حصون المـرأة، ولاختفى من حياة النساء التمنع والدلال ، وانتهـت أغـاني كثيرة هابطة، وأمثال شعبية لا قيمة لها، وكانت المرأة التـي ستعيش حذرة أن يخطف منها الرجل قبلة في أي وقت، كانت ستقدم نفسها إلى الرجل بسهولة، ولا بـد أن كلمـة سـفاح ستنتهي من المعاجم ؛لأن المرأة الواحدة يمكن أن يقبلها أكثر من رجل في اليـوم الواحـد وبـالطبع سـتختفي جـرائم الاغتصاب، وسيصبح الزواج أتفه مهمة على وجه الأرض..

قال ذلك كله بسرعة، وظل ينظر إليَّ واسع العينين، ولا بد أنه كان يرى مقدار انعكاس جنونه المفاجئ على وجهـي، لكني بدوت باردًا جدًا وقلت بهدوء...

- بالنسبة لمرض أبيك كان من الأفضل لو أخذت الإنسانية منذ بدايتها نظامًا آخر، أن يولد الإنسان شيخًا ثم يموت طفلاً، في هذه الحالة كان الأبناء يستطيعون حمل الآباء بسهولة إلى المستشفيات ، بل ربما صار ذلك عملاً جميلاً.. وتذكرت الضحك الشرس لصديقي ذلك اليوم، ولي، أيضًا..
- كان ذلك رائعًا بحق..

سمعت الصوت يعلق على ذكرياتي الشخصية من جديد، أمسكت به هذه المرة، إنه الرجل الأصلع المنضغط بيني وبين ظهر الرجل الذي أمامي الذي بدا لي يعاني من إجهاد شديد، وعاد يقول:

- الحقيقة كان يمكن للإنسان الحصول على متع أكثر لو سلكت البشرية طريقًا آخر.

لم أفكر أن أسأله ما إذا كان هو الذي سبق له الحديث فهو يحدثني بالفعل، فكرت في قدرته الفذة على الإمساك بأفكاري وذكرياتي رغم عدم حديثي بصوت عالٍ لنفسي أو لغيري، لكني أحسست بنوع من الرضا نحوه، وآخر

عهدي به أني رأيته ينسحب من بين الزحام بصعوبة، ورأيته يصل إلى الباب الخلفي، ورأيته يلوح لــي بيــده الصــغيرة يودعني، ورأيته يمشي يكاد يتدحرج فوق الأرض من فــرط قصره، ورأيته وادع الملامح جدًا، ورأيــت الطيبــة ذاتهــا مجسدة فوق صفحة وجهه، وأحسست بأنه شخص ودود وأني أعرفه منذ زمن بعيد وأن صوته أليف إلى روحــي وربمــا التقينا مرة من قبل في مكان هادئ، حديقة خالية أو جــامع، وكادت الدموع تنسال من عيني حزنًــا، أو حبًــا ، فكيــف تقولون إني قفزت خلفه، ورفعت من الأرض حجرًا نزلت به على رأسه، وإني وقفت جوار الجسد المهشم الرأس أضــحك وأصرخ باسمه الذي لا أعرفه...

١٩٩٢

الطريق والنهر

لا يعرف ما إذا كان النهر الذي يراه على يمينه هو نهر النيل أم فرع صغير من النهر ظهر فجأة في هذا المكان لكنه، كما يحدث في كل مرة، ظل يسرع بسيارته وهو يعرف أنه سيعود إلى نفس البقعة التي عاد إليها الآن، وسيشعر بنفس الارتباك..

لماذا يندفع الإنسان كثيرًا إلى الخطأ في اللحظة نفسها التي يفكر فيها في الصواب ويدركه؟ هذا ما يحدث له كلما زار صديقه الذي يسكن "بالمطرية" فما يكاد يغادر بيته ويفكر أن يعود إلى "إمبابة" مخترقًا القاهرة من الوسط، حتى ينحرف ليدور حول القاهرة آخذًا طريق الكورنيش الطويل والسريع، والذي عند هذه البقعة فيه، يكتشف أنه لا يستطيع الانتهاء منه، فهو يعبر تحت هذا النفق المنخفض ليصعد فوق هذا الكوبري الصغير، ليعود بعد قليل إلى نفس النفق الذي

يعبره ليرى نفس الكوبري.. لا أحد يقابله في الطريق ليقف يسأله، لا شرطي مرور، الوقت تجاوز منتصف الليل، الجو بارد ،ابنه الصغير الذي يصحبه معه دائمًا نام على المقعد المجاور، يقين هادئ، حاسم، يتسرب إلى روحه بأنه سيمضي ما تبقى له من العمر ضالاً في هذا الطريق، يتوقف بالسيارة جوار النهر الذي لا يعرف ما إذا كان هو النيل أم فرع جديد منه نشأ فجأة، ترك السيارة وتوجَّه ناحية الماء ليتبول، رأى فوق الماء بخرًا أبيض، وأضواء بعيدة على الشاطئ الآخر، أضواء أليفة إليه، يعرفها ولا يعرف كيف يصل إليها، ورأى قريبًا منه شخصًا يقف ويتقدم، شخصًا كان يجلس على حجر قرب الماء ويلفه الظلام والضباب، ارتبك للحظة لكن الشخص تقدم أكثر فبدا له شابًا صغيرًا يبتسم في وداعة، وتزداد ابتسامته كلما اقترب..

- مساء الخير.

- مساء النور. من فضلك هل يمكن أن تدلني كيف أصل من هنا إلى إمبابة؟

ابتسم الشاب وقال:

- لا توجد مواصلات الآن.
- معي سيارة .

تمهل الشاب قليلاً وقال:

- سأركب معك، أنا ذاهب إلى هناك.

تركا الشاطئ إلى السيارة، ابنه الصغير ينام على المقعد الأمامي ، وهذا الشاب سيجلس خلفه، ماذا يحدث لو قتله؟ يمكن جدًا أن يطعنه من الخلف، سيكون سهلاً للغاية، لكنه لم يستطع التخلص من الشاب، ركبا وركب الصمت معهما.

مشى بالسيارة على مهل لا يكف عن اختلاس النظر إلى المرآة المعلقة أمامه بعد أن حركها بحيث تكشف له الشاب خلفه، وجد الطريق سهلاً بعد ذلك، وإن لم يستطع أن يدرك تمامًا كيف خلص به الشاب من البقعة الجهنمية التي ظل يدور فيها، يرى الآن كوبري إمبابة فيشيع في روحه الأمان كمن عاد إلى بيته بعد تيه طويل، راح يعبر الكوبري فرحان لكنه حين نظر يساره ليرى البخر المرتفع فوق ماء نهر النيل العريض لم يرى إلا الأرض السوداء المظلمة هزَّ رأسه ليخرج منها أي خيالات ممكنة لكنه سمع ضحكة رفيعة تأتي

من خلفه، نظر في المرآة فوجد الشاب يضحك وقد ضـاقت عيناه بشكل غريب وامتد وجهه فصار خطمًا، وفوجيء أيضًا بانتهاء الكوبري وبأنه قد دخل بالسيارة في طريـق طويـل يتوسط رمالاً لا نهاية لها وعلى الجانبين وأمامـه مباشـرة أشجار عالية يكاد يصطدم بها ولا يصطدم فهي تقفز أمامـه تسبقه، واستيقظ ابنه يصرخ فزعًا من حيوانات كاسرة يراها، لكنه هو لا يراها، فلم يجد أمامه إلا أن يصرخ فـي الولـد ليصمت، وصمت ورأه يتضاءل على المقعد، ورأى أمامه في المرآة خطم الشاب يطول وسمع صوته يضحك أكثر وحاول إيقاف السيارة فلم تقف، يستدير بها فلا تستدير، وراح يقفـز فوق المقعد قفزات سريعة تتناسب مع قفزات الأشجار أمامه التي يبدو له مع كل قفزة أنها ستصطدم به وهفت نفسه إلـى ضوء الصباح، وقال في ضراعة بالغة أرجوك.. لكـن لـم يسمع إلا ضحكات رفيعة كسكين..

١٩٩٣

الضربة القوية

"تملكني الغيظ" فضربت بذراعي الهواء الذي انفتح إلى الجانبين وسمعت صوته، صوت مرور ذراعي بين الهـــواء، أعمق وأعرض من صوت السوط الذي يفرقع في الفضـــاء، ولم يعد الهواء إلى حالته الأولى، انزاح إلى الجانبين، وارتفع من الجانبين قائمان أبيضان ثلجيان يتقطر على كليهما مـــاء، دم أبيض تنزل قطراته ببطء وعلى مهل، وبعـــذاب عميـــق، وتتحدر على القائم الحائط، العالي، الذي صار على يســـاري ويميني تاركًا فراغًا هو الذي صرت أمشي فيه فراغ فـــارغ جعلني أخلع ثيابي العليا ثم السفلى محتفظًا بما يستر عورتي. الحقيقة أن ما يستر عورتي موجود، ولا أشـــعر بوجـــوده، ففكرت خجلاً أن أعود لكني وجدت نفسي أمضي إلى الأمام، إلى أين كان عليَّ أن أعود؟ لا أعرف. إلى أين أمضي إلـــى

الأمام؟ لا أعرف لكني أمشي ببطء أشحذ النفس كما كانـــت أمي تقول عن المرضى قديمًا..

ما الذي جعلني أضرب الهواء هذه الضربة القوية التي فلقته اثنين وحولته إلى حائطين من زجاج. لا أذكر الآن سر ذلك الغضب الهائل الذي تملكني، إنـــي أرى الآن كائنـــات غريبة تمشي أمامي، قليل منها يضحك لي وأكثرها يبكـــي ، أقلها في ثياب بيضاء وأكثرها في ثياب سوداء، إنها كائنـــات من فتية وفتيات صغار، الفتيات ترتدين الأبـــيض الزاهـــي، والفتية يرتدون الأسود القاتم، كلهم يحملون وجوهًا بريئـــة ، الفرحون منهم يسعدونني، فأقفز أطولهم، ولا أطولهم وأحزن. الباكون منهم يحزنونني.

أكاد أبكي من السعادة كما أكاد أبكي من الهم ، ثم مـــا هذه الوجوه الكثيرة التي تشبه وجهي والتـــي رُكِبـــت علـــى أجساد أكثرها نحيل وأقلها سمين؟

إنها أيضًا تمشي أمامي، النحيل منها شـــارد، والســـمين منها بطيء وكلها تنظر إلي وأكثرها يزور عنـــي، بعضـــها يتقدم نحوي ضاحكًا يقدم لي حفنة هواء ويضع كفيـــه أمـــام أنفي ؛\فأستنشق عبير الياسمين، لكن سرعان ما يبتعـــد هـــذا

البعض القليل أمامي فأعود إلى الاختناق، وأحاول بقــوة أن أعدو خلف الجميع الذين يجرون أمامي الآن، لكني لا ألحــق بهم، أحاول الخروج من بين الجدارين الأبيضــين الــزلقين الذين راحا يرقان ويشفان ثم تشققا فتــدخل فــي شــقوقهما رءوس وأجساد مما ظهر لي وتختفي وأظل وحدي لأني كلما اقتربت من أحد الجدارين عاد مصمتًا أملس كما كــان .لقــد ترك الجميع ذلــك الكــائن الوحيــد الآن، جميــل الطلعــة، المستعصي على الإدراك، والــذي لا أســتطيع أن أمســك بصورته أصفها لك، وأحيط بجسده وأبعاده، إنه ليس جمــيلاً كما أتصور. هو لامع كالمرمر يترجــرج كــالزئبق أســمع صوته ولا أدرك ما إذا كان هو الذي يصدره حقًــا أم ذلــك الفراغ الأزلي الذي حبست فيه تعال، تعال، تعال يا حبيبــي. يا للصوت الجميل الذي يشدني إلى الأمام ويملؤني بــالفرح فأشد قامتي وأمشي ثابت الخطوة ناسيًا أن الفــراغ يخنقنــي واثقًا أن الله يمنحني القوة والنفس رغم العدم المحيط، وأمــد يدي إلى يدي الكائن المرمري الممدودتين أمامي لكن لا يبدو أني سألحق به، ويظل صوته يجذبني وأنــا أتبعــه نشــوان مسحورًا داخلاً في فراغ جديد أوسع من ذي قبل تدخله أشعة

من كل جانب تتكسر ألوانها ماسًا وزمردًا وياقوتًا وفيــروزًا وتفرش في الفضاء عرائس البهجة، ثم صار عليَّ أن أقــف. انتهى صار الصوت الجميل أكثر خشــونة. زاعقًــا أجشًــا، انتهى اختفت الأشعة، لم يعد أمامي إلا سم إبرة، قوة غشيمة تدفعني للنفاذ منه، خلفه وجدت حفرة عميقة لا أرى قرارهــا من كثرة الغبار السابح فيها، أنا الآن أقف على شفا الحفرة لا أستطيع أن أبتعد، أسمع صوت آلام. صوت واهن عميــق لا يكاد يصل إليَّ. صوت النزع الأخير لأعداد لا حصر لهــا، إذن هي النهاية، وكل ذلك لأني ضربت الهواء بذراعي، لقد ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه يومًا، إلى هذا الحد خانني الهواء، لقد تملكني الغيظ، ولقد فعلت ذلك كثيرًا مــن قبل، لماذا تغيرت الأحوال هذه المرة؟ ومــاذا يحــدث لــو ضربت الهواء مرة أخرى؟ سيعود بي إلى حالتي الأولـــى ، وستعود إليَّ ثيابي العليا والسفلى، وســينزاح عنــي خجــل العراة، وسأعود من سم الإبرة ثم من الفراغ، لكن لم يعــد هناك هواء لأضربه من جديد وليس للفراغ قوام، ليس ثمــة وجود للعدم.

١٩٩٤

سماء زرقاء وبحر من اللازورد

(١)

صيد العمر

يحب الفضاء الأبيض، للسبب الذي من أجله يحبه الناس جميعًا: الاتساع، وراحة النفس، وجلاء النظر، فـإذا الـتحم الفضاء الأبيض بالسماء الزرقاء وهي خالية مـن السـحب السود، وبالبحر اللازوردي وهو هادئ الموج، ورقت الشمس وانتشرت في البياض أشعتها الحنون، إذا تحقق ذلـك وهـو غالبًا ما يتحقق في الخريف والشتاء، شملته النشوة العجيبـة التي تجعله ريشة تلتحق بالأثير لقـد أعلـن الحـب علـى الإسكندرية منذ طفولته، لكنه غادرها في شبابه وراء الفتـاة القاهرية التي أحبها على الشاطئ ، ولم يعد إلى الإسـكندرية إلا في الصيف، غير مستمتع بها، مندهشًا من قـدرة أولاده الصغار، على الاستمتاع بالصخب والزحام ، والتلوث الـذي شمل الماء والأرض والهواء، فانفرد لنفسه بفضاء الصـباح الباكر قبل أن تزدحم المدينـة بأنفـاس الحركـة الصـخابة

للمصطافين الغرباء وأبناء المدينة الذي ازدادوا كثيـرًا فـي الصباح الباكر، على الشاطئ، يستطيع أن يمسـك بالفضـاء الأبيض وسماء اللازورد، وهكذا عاد إلى حرفة الصيد التـي هجرها منذ استقر في القاهرة.

البحر دائمًا، أو في معظم الأيام، يستيقظ عفيًا في غبش الفجر، وهو يجلس عادة مع عدد قليل مـن هـواة الصـيد صامتين، الشمس تصعد خلفهم بتؤدة، بعد سـاعة ستصـعد بقوة، هو يعرف ذلك أكثر من غيره، عادة يجلس كبار السن قريبًا منه، رجل أو اثنان، الشباب الأكثر عددًا يتباعـدون ، كبار السن يتحركون بصعوبة علـى الصـخور الحشـفية، أجسادهم ضامرة، سيقانهم رفيعة يتهدل لحـم ربلـة السـاق كشيء زائد علق بالقصبة، الرجل المسن الذي تعود الجلوس جواره يرفع دائمًا صنارته فتخرج خالية، حتى عندما يغيـب أو يختفي، يجلس جواره رجل مسن آخـر يلقـي بصـنارته ويرفعها بلا صيد، لا تفارق الابتسامة الرجال المسنين كأنما جاءوا للهو لا للصيد، فكر مرة في المصادفة الغريبة التـي تجعل كبار السن يقتربون في جلوسهم منه، ربما لابتعاده عن سني الشباب، ربما للمشيب الذي ضرب في شعره بقوة، على

أي حال لم يجد تفسيرًا مناسبًا فاكتفى بالابتسام، لكنه لم ينقطع عن التفكير في إخفاق المسنين في اصطياد الأسماك في أكثر الأوقات.

"سمك صغير صعب أن يمسك بالصنارة" يقول أغلبهم وهم ينظرون إليه مبتسمين، لا يعلق ؛لأنه يصطاد السمك الصغير والكبير، وكذلك يفعل الشباب، يعود إلى البيت مع بداية ازدحام الشاطئ.

أول ما يقابلة المرآة الموضوعة في الصالة فينظر فيها تلقائيًا، يبتسم، لا يجد إجابة لسؤاله عن اقتراب المسنين في جلوسهم منه، أو يجدها ويتغافل عنها، لكنه لم يجد أبدًا إجابة عن سبب اخفاقهم معظم الوقت في الصيد، وإصرارهم، واحدًا وراء الآخر، على الصيد في الصباح الباكر، ذلك يحدث طوال إقامته الصيفية في المدينة التي أحبها قديمًا، ويبعث الروح في هذا الحب بخروجه الصباحي المبكر، رغم أن البحر عادة لا يكون هادئًا، والأمواج لا تكون رفيقة عند الفجر، وصوتها غالبًا مخيف، هل هناك موعظة ما وراء إصرار المسنين على الاقتراب منه ، وإصرارهم على الصيد بلا صيد؟ هل يختزلون له الدنيا في عمل جميل...؟.

(٢)

الفتاة الصباحية

الفضاء الأبيض يحمله إلى طبقات من الأثيـــر دائمًـــا، يحدث ذلك بسرعة في الصباح، وبلطف عند الظهـــر أيـــام الشتاء، رغم أن الفضاء الأبيض في الصباح يختلط بـــالريح الطرية وزبد الموج، وفي الظهيرة يمتزج بالصمت، لكن في الصباح يمازجه شعور آخر، أجل ، إذا أنت استيقظت مبكرًا في الإسكندرية، ووقفت على شواطئ البحر وأحاطتك برودة الليل اللذيذ وهي تنسحب، لشعرت بالزوال الرابض في سقف العالم أكثر مما تشعر به عندالغروب ، ولشعرت بأن الضوء يرمح في رأسك، لقد تم انتزاع المخ منـــه وصـــار خـــلاءً، لنسيت أن خلفك شارعًا وعمارات عالية لعل بيتـــك بينهـــا، أو أن حولك عددًا من الناس خلقهم الله منذ سنين مثلك ولـــم ينزلوا من السماء الآن! باختصار تنقطع الصلة بينك وبـــين الماضي والمستقبل وتبدو كما لو أنك تستقبل الحياة لأول مرة ولا تدري كيف تنقل قدمك على أرضها؛ لذلك كلـــه تـــراوده الرغبة كثيرًا في الهروب، الصيد وحده لا يكفي لذلك يصطاد يومًا ويأخذ سيارته يرمح بها على طريق الكورنيش معظـــم

الأيام، وفي الصباح الباكر أيضًا، تبدو السيارة وكأنها تمشي داخل الزمن. آلة زمن تتوغل به في المستقبل الخالي حتى الآن، السرعة الفائقة التي يرمح بها تجعله في المستقبل مغلفاً بالهواء ورذاذا الماء ولا يرده إلى الحاضر إلا منحنيات الطريق الحادة، وفتاة وحيدة تنتظر أن يلتقطها أحد بسيارة ملاكي أو تاكسي، دائما يفاجأ بها قريبة منه فلا يستطيع الوقوف بالسيارة إلا بعيدًا فلا يقف . في أكثر من صباح يقرر أن يقود السيارة على مهل حتى يلتقط الفتاة الجميلة الصغيرة، لكنه ما يكاد يتحرك بالسيارة حتى ينسى كل شيء إلا أن ينطلق بها في جنون، داخلاً في أثير المستقبل الخالي، ولا يدرك الفتاة إلا وقد صارت خلفه بمسافة كبيرة فلا يعود إليها، إنها لا تقف في مكان واحد تتنقل بطول الكورنيش، تتغير، لكنها دائما جميلة وهي تقطع كل هذا الفضاء الأبيض تحت السماء العريضة الزرقاء وأمام البحر الواسع اللازوردي الذي يستيقظ عفيًا، ينتهي الصيف كل عام ولا ينجح في الوقوف أمامها مرة، يظل يطويه الأثير.

(٣)

قيامة الماضي

ابنه يحب الصيد بجنون لكن في المساء يـــذهب دائمًـــا وحده، بدونه، أو مع أصحابه، ويعودون قبل الفجر، ولا يفكر مرة في اصطحابه معه لأنه يكون قد نام منذ قليل، يذكر قبل زواجه أنه كان يحلم أن يكون له ولـــد ويخـــرج معـــه فـــي رحلات خلوية يعلمه صيد الطير وصيد السمك ،ويمرحـــان ويلهوان معا، ربما كان ذلك من أحد أسباب زواجه، ولعلـــه كان السبب الرئيسي، لكن الولد منذ استطاع الخـــروج إلـــى الشارع وحده، ابتعد عنه وارتبط بأصحابه.

فاجأه الولد برغبة في الاستيقاظ مبكراً، سأله:

- تريد أن تصطاد معي.
- لا، سأذهب مع أصحابي، قررنا أن نغيـــر المكـــان والوقت، يتحدثون عن لسان في الماء قبـــل كـــازينو الشاطبي يحوي أنواعًا وكميات كبيرة مـــن الســـمك حوله، سنجرب، هل تحب أن تأتي معنا؟

خرج معهم عند الفجر، ابنه وصديقان له.. لا يعرف الخشوع من لا يستيقظ ويتطلع إلى الدنيا عند الفجر، لا يعرف الرحمة أيضًا..

وضعوا أدوات الصيد في حقيبة السيارة، أدار الموتور فارتفع صوته يشق السكون النائم. كان الأولاد يتبادلون الابتسام في خجل، والكلام همسًا، لقد تحركوا بعض الوقت حول السيارة في انتظارهم لأوامره بالصعود إليها، سوف يرتفع صوتهم بعد قليل ويشقون جلال الصباح القادم، تحرك بالسيارة على مهل، لم يكن يليق أن يرمح بها والأولاد الصغار معه، لا بد من وقار يليق بالأب، ولا مانع أن يحدثهم عن أخطار السرعة المجنونة.

في الطريق لم يقابل إلا أعداد الصيادين الهواة القليلة متفرقة في المناطق الصخرية المتباعدة لم ير المسنين الذين يقتربون منه دائمًا في المكان الذي يصطاد فيه بشاطئ المندرة، لم يقابل الفتاة الوحيدة في الطريق رغم أنه يمشي بالسيارة على مهل، لعل ذلك هو السبب أيضًا، الأدق هو أن وقار الأب الذي تلبَّسه جعله لا يرى ما كان يرى! لكن على اليسار كانت العمارات قائمة في أماكنها، مع التقدم في

الطريق بدأت تظهر بعض المقاهي الساهرة، عندما اقتربـــوا من الشاطبي كانت "قهوة والي" لا تزال ممتلئة بالرواد الذين يلعبون الطاولة ويشربون الشيشة طوال الليل.

- ها هو اللسان.

قال ابنه ، فكر هو في مكان تقف به السيارة، دخل بهـــا إلى شارع جانبي أفضى به إلى الشارع الخلفـــي المـــوازي لشارع الكورنيش، وأمام أول بيت توقف.

نزلوا من السيارة، فتح حقيبتهـــا؛ فأخـــذ الأولاد أدوات صيدهم وانطلقوا يسبقونه إلى البحر، هـــو لـــم يســـتطع أن يتحرك طعم الهواء ورائحته يبعث في روحه حنينًا عريضًا.

البيت الذي توقف أمامه يرتفع إلى ثلاثة طوابق، الطابق الأول المواجه له مهدم الجدران بطريقة تشـــي أن صـــاحبه سيحوله إلى محلات، الطابقان العلويان خاليان مغلقا النوافذ، إلى اليمين باب البيت الصغير الحديدي خلفه السلم الضـــيق الحديدي الدائري الذي يفضي إلى أبواب الشقق من الخلف.

كل شئ قديم حائل، حتى شجرة المانجو التي لا تـــزال عالية كما هي لا يبدو أن ثمة ثمارًا عالقـــة بهـــا، شـــاخت

الشجرة من الإهمال ، هو يعرف البيت ويعرف طعم الهواء ورائحة الأرض والجدران حائلة البياض، لكن قريبًا منه مقهى صغير لم يكن موجودًا من قبل يستطيع أن يجلس به، يحتاج حقًا للجلوس أكثر ما يحتاج إلى شاي الصباح.

بالمقهى لم تنزل عيناه عن البيت، شرفة الدور الثاني الواسعة كما هي، وكذلك شرفة الدور الأخير حيث كان يسكن مع زملائه طلاب الأرياف.

لكن الدور الثاني وشرفته هو الذي يشد عينيه أكثر، هو يعرف أن زملاءه تخرجوا معه في الجامعة منذ عشرين سنة وانتشروا في البلاد، أحيانًا يلتقي بواحد منهم أو يسمع خبرًا عنه، لكن لا يعرف شيئًا عن سكان الدور الثاني.

الفتيات الصغيرات الجميلات والنساء الضائعات اللاتي كن يعدن مع الصباح ليجلسن في الشرفة ينشرن شعورهن تحت الشمس الفضية، كان من السهل أن ينزل هو أو أي من زملائه لطلب فتاة أو امرأة من بينهن لكنهم لم يفعلوا أبدًا، والنساء أيضا لم يصعدن إليهم، كن يخرجن مع المساء ويعدن مع الصباح متعبات يجلسن تحت الشمس قليلاً بعد الحمام والاغتسال ثم يدخلن إلى الغرف ويغلقن الأبواب

والنوافذ، هذا شارع تانيس العتيق ذو البيوت الواطئة، لا يرتفع أكثرها عن ثلاثة أو أربعة طوابق، هذا الشارع الذي كان يمتلئ بحركة الطلاب والنساء الضائعات والفتيات يبدو له خاليًا ساكنًا في الصباح، لا يبدو أن أحدًا يسكنه الآن لا بالصيف ولا الشتاء لا يصدق، لكن هذا هو ما يراه.

كان هو وزملاؤه مثل كل الطلاب ساكني الشارع يفتحون شققهم للنساء الضائعات، لكن لا هو ولا أحد من زملائه فكر في واحدة من الدور الأسفل، كان هو أو أي من زملائه ينزل إلى الطريق ليصعد بأول من يقابلها وتقابله، وكانت نساء الدور الثاني يرين فيبتسمن ولا يعرضن أنفسهن عليه أو على زملائه.

شرب الشاي ونهض لا ليلحق بابنه وصاحبيه لكن ليمشي قليلاً فوق أرض الشارع يشرب من الهواء القديم الأليف المشبع بالرطوبة المنعشة ويترك أمواج الذكريات تشق لها قنوات في قلبه.

يرتفع حوله صخب زملائه ، وضوضاء النساء والفتيات العائدات في الصباح وتصعد إليه روائح عطورهن الرخيصة وضحكاتهن المحلولة من تعب الليل ويمشي باسمًا يسأل نفسه

لماذا حقًا قام كل منهم بدور الساكن المحترم الأعوام الأربعة التي عاشها في هذا المنزل، هو وأصحابه أو النساء الضائعات الكبيرات والصغيرات؟ وهل لو لم يقم كل منهم بهذا الدور أمام الآخر، كانت الحياة قد أخذت طريقًا آخر وطعمًا آخر؟

١٩٩٣

سُفن قديمة

لاحظت أنه يتكلم إلى ابنه دون أن يرفــع عينيـــه عـــن زجاجة الجعة فوق المنضدة البيضاء الصغيرة، ولا أعـــرف هل كان الولد يصغي إليه أم لا. لقد بدا لي مبتهجًـــا بشـــرب زجاجة «السفن أب» يصوب عينيه من خلف الزجاج الشفاف إلى الأطفال المبتهجين في الشارع.

كان اليوم عيدًا. وكنت أرسل عينيَّ إلى أبعد من الشارع والأطفال، إلى البحر المترامي في كسل صافي الزرقة، فوقه الفضاء أبيض بلا نهاية، والسماء البعيدة تحتها سحب قليلـــة خفيفة هشة تتحرك بلا نظام، وتتمزق بسلاسة فتتبعثر قطعًـــا صغيرة تسبح تحت السماء.

صلعة الأب كبيرة متحدة مع جبهته العريضة، الـــرأس أكبر من ذلك الرأس الذي عرفته، ربما لاتســـاع الصـــلعة، وربما لازدياد النعمة! لكن الشارب العريض كما هـــو فـــوق

الشفة العريضة للفم الواسع، والأنف في مكانه، فقط ازدادت قاعدته اتساعاً!

لا يزال الأب يشرب الجعه مركزًا عينيه على الزجاجة والجرسون لم يعد إلى الظهور، والمشـــرب خـــالٍ إلا منـــا والوقت ظهر، ليس هذا الموعد المناسب لشرب الجعة، دائما أختار أنا الموعد غير المناسب، أحب أن يكون المشرب خاليًا أو شبه خالٍ، تلك عادتي عندما أكون وحدي في بلد من البلاد لا يسلي وحدتي إلا انفرادي! أستطيع أن أتفحـــص جـــدران المشرب واللوحات الجميلة على الجدران التـــي عـــادة مـــا يصرفنا الزحام عن تأملها ، وفي كل الأحوال أجـــد تـــاريخ المكان يتجلى أمامي خارجًا من الصور، ومن الأسماء التـــي يكتبها أصحاب المحلات الأذكيـــاء للمشـــاهير الـــذي زاروا محلاتهم، رأيت ذلك في باريس وفيينا ونيويورك وشـــيكاغو وموسكو أيضًا، كثيرًا ما أفكر أن أصحاب هـــذه المحـــلات شطار أو نصابون، إذا قلت إنه هنا كان يجلس "جـــان بـــول سارتر" كما هو موجود في مقهى "الدوماجو" في بوليفار سان جيرمان. فهل سيناقشك أحد في ذلك؟ هل سيعترض أحد على

ذلك؟ سيحدث العكس، ويتواطأ الزبون معك لـــيجلس مكـــان سارتر ويقول ذلك للآخرين.

إن السعادة هي الهدف الحقيقي للإنسان، حتى لـــو راح يحققها للآخرين، وإننا نبحث عن السعادة ولو عـــن طريـــق الكذب ، لكن هذا المشرب السكندري العتيق لا يعلق صـــورًا للمشاهير. رواده يعرفون أن صاحبه يوناني ترك الإسكندرية إلى أثينا في أواخر الخمسينيات، الحقيقة أنه بدأت موجـــات هجرة واسعة من الإسكندرية بعد حرب ١٩٥٦ كان اليهـــود هم أول المهاجرين وأكثرهم، ولا أحد يعرف لمـــاذا هـــاجر اليونانيون والإيطاليون والقبارصة، لقد احتفظ صاحب المحل الجديد، السكندري المصري، بالصور القديمة للمحار وأسماك البحر والسفن الشراعية القديمة مبحرة فـــي الآفـــاق تحـــت الغيوم، وسفن أخرى في يوم صحو ترقص حولها الـــدلافين لاهية .

كنت أحب البحر وأحلم بالعمل فوقه لكن لم يتركني البـــر.. هكذا كان .

- لحضرتك أخ اسمه إدريس؟

- أنا إدريس.

هذا ما حدث بالضبط. سألته السؤال الذي ظللت بعض الوقت مترددًا فيه وأجاب هو في اللحظة نفسها كمن كان في حاجة إلى ذلك! ابتسمت وشعرت بارتياح غريب برغم أني لم أكن متضايقًا من قبل!

- لقد عرفتك من صوتك.
- لكني لم أتحدث.
- لقد أجبتني على الأقل.

ضحك ضحكة قصيرة واحمر وجهه. سألته:

- هل تعرف كم مر من السنين؟
- عشر .
- تسع.

عاد يضحك ويحمر وجهه، قلت:

- لم تكن قد تزوجت بعد.

ورأيت عددًا من الأطفال يتطلعون إلينا من خلف الزجاج، عيونهم صغيرة لا تستقر، كانوا في البداية طفلاً

واحدًا انضم إليه آخر ثم ثالث ثم راحوا يزدادون. يتطلعــون إلينا ويبتسمون في دهشة حقيقية.

- كانت وأنا في سنهم أفعل مثلهم.
- الأيام تدور.
- لكني كنت لا أكتفي بالنظر.
- الأجيال الجديدة جبانة.

أدهشتني إجابته، وكان ابنه يبادل الأطفــال الابتســام، وسكتنا قليلا ثم قال:

- لقد طلقتها في اليوم التالي لوصولي.
- من هي؟
- زوجتي .ألم تسألني عنها الآن؟

لم أكن قد سألته لكني قلت:

- أجل.
- سافرت أعمل في ليبيا وعدت لأجدها علــى علاقــة بشخص آخر. أخذت الولد معي.

أشار إلى ابنه الذي كان لا يزال مستغرقًا في مبادلة الأطفال الابتسام واستمر يتحدث:

- حضرت من ليبيا يوم سبعة وعشرين وطلقتها يوم ثمانية وعشرين، أنا لا أنسى ذلك اليوم.

كان الولد قد تركنا فجأة وخرج ليقف يتحدث مع الأطفال ويشير إلينا معهم ، ويبتسم مثلهم وتزداد ابتساماتهم من خلف الزجاج، وتشرق أكبر. فجأة تناقصوا، شيئًا فشيئًا تناقصوا حتى صاروا ثلاثة مع الولد ، ثم عادوا يزدادون، وهكذا مثل موجات متعاقبة كانوا، ودائما أنا أتجاوزهم بالنظر خلف الشارع إلى البحر الذي يمتد سلسًا هادئًا في مثل هذه الأيام الشتوية الدافئة، وأحسست بالضيق فجأة من حديثه وسألته:

- هل ستعود إلى ليبيا من جديد؟
- ربما لكني افتتحت محلاً للأثاث في شارع خالد بن الوليد، المحل القديم الذي بعته قبل الجواز، كان يخسر كثيرًا.

- اذكر ذلك وأذكر أنك بعته لتحصل بثمنه على شقة في حي أرقى.

- هذا صحيح لقد ساعدني والدك كثيرًا. إنني لا أنسى فضله عليَّ ولم تكن هذه حقيقة. لقد مات والدي منذ عشرين سنة.

واستمر هو يتحدث:

- لولا والدك ربما كنت خرجت من المنطقة مديونًا ملعونًا، ثم إن والدك أيضًا حذَّرني من تلك الفتاة.

- أي فتاة؟

- التي صارت زوجتي وطلقتها، التي سألتني عنها وحدثتك الآن.

وسكت هو وأنا بدوري سكت ورحت أتطلع إلى ابنه والأطفال الذين ينظرون إلينا من خلف الزجاج، ثم تناقصوا حتى بقي الولد وحده وفي اللحظة التي كاد فيها يعود إلينا ظهرت امرأة شابة وقفت تتحدث معه انحنت عليه وقبلته، ثم أشارت إليه أن يخرج إليها بسرعة فترك حسابه على المنضدة وخرج.

فعل ذلك بينما أنا مشغول بالنظر إليها، لـــم يكـــن مـــن الصعب أن أتذكرها. لقد تهدل صدغاها قليلاً وزاغت عيناها وذبلتا كثيرًا ورأيت شفتيها باهتتين متشققتين وهي تبتسم لـــي من خلف الزجاج، كانت ترتدي "جوب" أزرق قـــديمًا فوقـــه "بلوفر" أبيض واسع، كانت أمي تقول دائما عنها: "ظهرهـــا ممسوح وناشفة" لكني كنت أميـــل إليهـــا كثيـــرًا، وأنتظـــر ابتسامتها من البلكونه العالية في الدور السابع، أنـــا الواقـــف فوق السطح، كانت الابتسامة تتألق في الشمس، ويبدو لي أننا معلقان في فضاء بعيد لن ننزل منه إلى الأرض، لكنها كانت تسرع بالدخول من البلكونة ، وتتركني معلقًـــا فـــي الفـــراغ وحدي، لا أنسى طعم البهجة التي كانت تشيع فـــي صـــدري هي نفس البهجة التي تسللت إليَّ الآن بعد الابتسامة الواهيـــة من الشفتين المتعبتين، لكنها ليست بنفس الاتساع، ولا العمق، أجل قلَّت حلاوة الأشياء ولم تعد كما هي ولم يبقَ على حاله سوى الضجر.